الرحلة الأخيرة

رندا فضل علي هادي

دار أحرفنا المنيرة

الرحلة الأخيرة
رندا فضل علي هادي

عنوان الرواية " الرحلة الأخيرة"

الكاتبة: رندا فضل علي هادي.

الإهداء :

إلى كل من أوقفته عقبات الطريق وصعوبات الحياة عن تحقيق أحلامه.

إلى من علَّموني أبجدية الوجود: أبي وأمي.

إلى أخواتي، السند اللاتي لم يخذلنني يومًا.

إلى كل من وقف بجانبي في الأوقات الصعبة، وكان لي عونًا وسندًا في كل محنة.

المـــقدمة

إن أحداث هذه الرواية تمثل تزاوجًا استثنائيًا بين أبعاد الواقع وفضاءات الخيال، حيث انتقيت في الفصول الأولى أن أكتب عن قبائل السورما،تلك الجماعات التي تنتمي إلى عالم بعيد ومعزول في جنوب غرب إثيوبيا، والذي يبدو وكأنه محض خيال يتداخل مع نسيج الواقع. لقد رغبت في تسليط الضوء على عزلتهم وصمتهم، الذي يشبه صدى الوجود ذاته، في محاولة لإضاءة منطقة مهملة من الوعي الإنساني، تلك التي غالبًا ما تغفلها الأعين المتعجّلة والمشغولة بأصداء الحياة اليومية.

ومع مضي الكتابة، داهمني المرض، فأصبحت الفصول الأخيرة انعكاسًا لذاتي، لحالتي المتعبة، وكأنني أكتب لنفسي بداخل شخصية "نفس"، أحاكيها وأخاطب بها مرضي وتوقعاتي لما سيحدث لاحقًا، مع مزج الواقع بشيء من الخيال الذي يخفف من قسوة الحقيقة.

أعزائي "أهلي، أحبتي، وكل من رافقني في مسيرة الحياة"، إن الأيام التي أعيشها الآن ليست كأي أيام، بل هي أيام تتسم بعمق التجربة ومرارة الوجود. أشعر وكأنني على حافة هاوية سحيقة، حيث لا أعلم إن كنت سأعود منها أم لا. فالآلام التي تثقل كاهلي وتنهش

جسدي تحملني إلى تساؤلات لا تنتهي: هل سأشفى من هذه المعاناة؟ أم أن هذه هي النهاية المحتومة لرحلة حياتي؟

لذا، أطلب منكم "السماح" إن كنتُ في يومٍ من الأيام قد أسأتُ لأحدكم بزلة لسان، أو أسأتُ له في نفسي، أو مع جماعة بقصد أو بدون قصد. أو لعلي قد اغتبتُ أو أخطأتُ، فالنفس البشرية ضعيفة، والخطأ من طبيعتها. أو قد أكون ممازحًا فأثقلتُ، أو ربما لامستُ وجعًا دفينًا، أو سببتُ جرحًا عميقًا، أو أيقظتُ ذكريات مؤلمة. فأنا لا أريد أن أرحل من هذه الدنيا تاركًا خلفي قلوبًا تحمل ألمًا مني، كأنما أترك وراءي غيمة من الحزن.

- الفصل الأول -

"بداية الرحلة- قلق غير مفهوم"

الـجـزء الأول

في زوايا غرفته المعتمة، حيث يسود سكون عميق، ولا يكسره سوى دقات عقارب الساعة التي تتردد في الأرجاء كنبضات قلب منتظم، كان السيد أحمد يجلس على مكتبه، يسعى جاهدًا لجمع خيوط الزمن الماضي عبر شبكة الإنترنت، محاولًا فك شفرات تلك الحياة التي عاشت تحت ظلال العصور، مُفتّشًا عن بصمات الحضارة التي قد تكون نُسيت في زوايا النسيان.

من أجل رسالته للدكتوراه، التي تحمل عنوانًا مُثقلًا بدلالات فلسفية: "استقصاء نمط الحياة في المناطق التي تسير بخطى وئيدة تحت ظلال العصور القديمة"، كان عقله يسافر بين تلافيف الزمن، مُستعرضًا صفحات من التاريخ كأنها نوافذ تفتح على عوالم ماضية، متجاوزًا حدود الزمان، مُتجولًا بين الحكايات والأساطير.

بينما كان يتنقل بين تلك الصفحات، استوقفه ذكر قبائل السورما، تلك المجتمعات التي تعيش في جنوب غرب إثيوبيا، وكأنها كائنات من حكاية خرافية، تتحدى منطق الزمن، وتستعصي على التحولات التي فرضتها المدنية. في تلك اللحظة، تملّكته تساؤلات معقدة، تتراقص في ذهنه كأوراق شجر تتساقط في خريف الأفكار، تتشابك وتتداخل، متأرجحة بين طبيعة حياتهم، عاداتهم، وتقاليدهم.

كيف يمكن أن تكون حياتهم في عالمٍ بعيد عن صخب الحضارة الحديثة؟ هل هم حقًا يعيشون كما عاش أسلافهم، أم أن خيوطًا رقيقة من التغيير قد تسللت إلى حياتهم؟ كانت تلك التساؤلات تتوالى، تتداخل في شبكة من التأملات، مُستفزّةً أعماق فكره، مُشعلةً شرارات من التأمل العميق حول معنى الحياة، الوجود، والتاريخ، كأنها تعكس صدى رحلة بحثٍ لا تنتهي، تتجاوز حدود الزمان والمكان، لتغوص في أعماق الوجود الإنساني، متطلعةً إلى رؤية ما وراء السطح، حيث تنبض الحياة بألوانها الخفية ونبضاتها المعقدة.

عندما أشارت عقارب الساعة إلى منتصف الليل، أقدم السيد أحمد على إغلاق جهازه ليأخذ قسطًا من الراحة. ألقى برأسه إلى الوراء، مستندًا على ظهر المقعد، كمن يُسقط عن كاهله ثقل الأفكار المتزاحمة التي تتصارع في أعماق عقله، محاولًا إغماض عينيه في مسعى يائس للابتعاد عن زخم المعلومات المتدفقة، التي تجمعت كغيوم متراكمة فوق سماء فكرٍ مرهق.

ومع ذلك، لم يكن بإمكانه الهروب، إذ كانت أفكاره تتصارع كأمواج البحر العاتية، تتلاطم وتندفع في صراع متواصل بين فضول عميق ورغبة ملحّة في معرفة المزيد عن قبائل السورما، تلك الرغبة التي تشبه نارًا متأججة لا تخمد. كانت هذه الأفكار تتشكل وتتفكك، تتداخل في نسيج معقد من التساؤلات والاحتمالات، مما جعل عقله ميدانًا لصراع فكري متجدد، يكاد يفقده توازنه، ويغمره في دوامة من التأملات التي لا تنتهي.

وفي خضم تلك المعمعة الفكرية، برزت في ذهنه فكرة، كأنها نبتت من أعماق لا شعوره، لتُلقي بظلالها على تفكيره المضطرب: "لماذا لا أشرع مع عائلتي في رحلة استكشافية إلى عالمهم، وأدرس نمط حياتهم في قلب الواقع؟" هذه الفكرة، التي بدأت كهمسة خافتة تتردد في زوايا عقله، سرعان ما تحولت إلى شعلة متأججة تضيء دروب تفكيره، متراقصة في ذهنه كفراشة تبحث عن النور. ومع مرور اللحظات وتراكم التأمل العميق، قرر أن يستجيب لهذا النداء الجذّاب.

في الصباح الباكر، حيث كانت أشعة الشمس تتسلل بخجل عبر النوافذ، جلس السيد أحمد مع عائلته المكونة من زوجته نشوة وولديه الشابين، خليل ونَفَس، حول مائدة الإفطار. كانت الأجواء مفعمة بالحب والدفء، لكن في قلب أحمد، كانت تلك الفكرة تتأجج، تنتظر اللحظة المناسبة لتخرج إلى النور.

بينما كانوا يتناولون الإفطار، لم يستطع أحمد كبح جماح فكرته أكثر، فطرحها على عائلته. في لحظة، انتشر الحماس كالنار في الهشيم، وكأن الفكرة كانت دعوة للعودة إلى عصور ماضية، حيث المغامرات تنتظرهم في كل زاوية.

بينما كانت العائلة تستعد للسفر، زارهم أولاد أخي السيد أحمد، خالد وغصون، يطلبان من عمّهما الانضمام إليهم في هذه المغامرة المثيرة.

استقبل أحمد الفكرة بحماس بالغ، وأخبرهم أنه يتعين عليهم الاستعداد في غضون أسبوع. ومع تلك الموافقة، اجتاحت موجة من السعادة قلوب الشباب الأربعة، حيث تألقت الابتسامات على وجوههم، وبدأت أحلامهم تتراقص في فضاء واسع.

تخيلوا أنفسهم يستكشفون الأراضي الغامضة، يتعلمون من القبائل التي تسير على خطى الأجداد القدماء، ويكتشفون أسرار الحياة التي لم ترو بعد.

جاء يوم السفر، وامتلأ المطار بأجواء تتأرجح بين التوتر والفرح. تجمع الجميع في صالة الانتظار، حيث كان والدا خالد وغصون يقفان على بُعد خطوات، يودعانهما بنظرات مليئة بالحب والتمنيات. "رحلة آمنة وممتعة"، كانت العبارة التي ترددت في الأجواء، تحمل معها مشاعر عميقة لا توصف.

آقلعت الطائرة من مطار بيروت الدولي، لتبدآ رحلتهم نحو آرض إثيوبيا الغنية بالتاريخ العريق. وبينما كانت الطائرة تحلق في السماء، تراقصت أضواء الشمس الغاربة بألوانها الذهبية والبرتقالية على الأفق، مما أضفى على اللحظة جمالًا ساحرًا. رغم بطء مرور الساعات، كانت كل لحظة تقرب الروح من الحلم، وتكشف جمال الكون في أبعاده اللامتناهية.

هبطت الطائرة في مطار بولي الدولي، فكانت لحظة الهبوط مثيرة، حيث بدأوا يشعرون بعبق الثقافة الجديدة، تلك الألوان الزاهية والأصوات المتنوعة التي ملأت المكان، مما جعل شغفهم لاستكشاف كل ما هو جديد يتأجج في صدورهم. كانت الإثارة تتسلل إلى أرواحهم، كأنهم على أعتاب مغامرة ستظل محفورة في ذاكرتهم إلى الأبد.

استقلّت العائلة سيارة أجرة انطلقت بهم إلى قلب أديس أبابا، حيث كانت الأضواء تتلألأ كنجوم السماء في ليلة صافية. كان الجو مفعمًا بالحيوية، وكانت المدينة تعج بالحركة والنشاط. بينما كانت السيارة تتنقل بين الشوارع، كانت عيونهم تتوهج إعجابًا أمام جمال أديس أبابا، حيث المناظر الطبيعية الخلابة والمعمار الفريد الذي يروي حكايات الزمن.

أخيرًا، وصلت العائلة إلى فندق يُدعى "هيلتون"، حيث حجزوا ثلاث غرف: واحدة للأب والأم، وأخرى لخالد وخليل، والثالثة لنَفَس وغصون.

مع اقتراب الليل، بدأت هواجس قاتمة تتسلل إلى قلب السيدة نشوة، كضباب كثيف يعكرٍ صفو تفكيرها، حيث شعرت بقلقٍ متزايد على الشباب، خصوصا الفتيات اللاتي سيضطررن إلى النوم بمفردهن، مما زاد من غليان مشاعرها.

في خضم تلك المشاعر المتلاطمة، كان السيد أحمد يحاول أن يكون صخرةً ثابتة في عاصفة قلقها.

ابتسم ابتسامة هادئة، ثم تحدث بصوت يحمل شيئًا من الطمأنينة:

"لماذا كل هذا الخوف؟ هل نسيتِ أن نَفَس تمارس رياضة الكاراتيه؟ فهي قادرة على الدفاع عن نفسها وعن غصون."

لكن على الرغم من محاولاته لتهدئة روعها، كانت مشاعر القلق كظلالٍ تلاحقها بلا هوادة، تستولي على كل ذرة من تفكيرها. استدعتَ كلمات زوجها إلى ذاكرتها، لكنها بدت كأنها صدى بعيد لا يفي بالغرض، غير قادرة على تبديد الضباب الذي يحيط بها.

في تلك الليلة الهادئة، وبين أجواء الفندق المريحة، كان خالد يتأمل من نافذة غرفته، وعيناه تتجولان في الأماكن المحيطة بتلك المنشأة الفاخرة. كان قلبه ينبض بشغف لا يُقاوم، يدفعه إلى استكشاف المدينة التي تكتظ بالأسرار.

التفت إلى خليل وقال:

"هل ترغب في الذهاب معي لاستكشاف المدينة؟"

ابتسم خليل برضا وأجاب:

"بالطبع، ولنأخذ الفتيات معنا."

كانت الفكرة قد نالت موافقته، فانطلقا معًا نحو غرفة الفتيات.

بلهجة مشوقة ومليئة بالحيوية، سأل خالد نَفَس وغصون:

"هل تودّان الذهاب معنا في جولة قصيرة؟"

لم تتردد نَفَس في الموافقة، بينما تحفزت غصون، لكنها سرعان ما شعرت بتوتر يتسلل إلى قلبها.

"ألا تخافون؟" سألت بقلق، "أتريدون الخروج في هذا الوقت المتأخر من الليل، في منطقة لا نعرف عنها الكثير؟"

تبادل خالد وخليل نظرات مليئة بالتفاهم، ثم قال خالد:

"لا داعي للقلق، سنكون معًا، وكل شيء سيكون على ما يرام."

كانت كلماته كالسحر، تهدئ من روع غصون، حتى وإن كانت مخاوفها لا تزال تعصف بداخلها. ومع ذلك، بدأت روح المغامرة تتسلل إلى قلبها، وفي لحظة حاسمة، قررت أن تتجاوز مخاوفها وتنضم إليهم.

الجـــزء الثـــاني

في تلك الليلة الحالمة، حيث كانت السماء تتلألأ بنجومها كأنها جواهر متناثرة على قماشٍ أسود كالح، انطلق الشباب في مغامرة استكشافية لأعماق مدينة أديس أبابا. بينما كانوا يتجولون في شوارعها الواسعة، استوقفهم منظر سوقٍ عتيق يحمل في طياته عبق التاريخ العريق، فقرروا عبور عتباته. كان سوق "ميركاتو" التاريخي، الذي يعتبر من أكبر الأسواق الشعبية في المنطقة، بمثابة بوابة سحرية إلى عالمٍ زاهر بالألوان الزاهية والأصوات الحماسية.

بينما كانوا يتنقلون بين الأروقة المترامية للسوق، كانت أعينهم تنبض بالدهشة والإعجاب أمام عظمة هذا المعلم الحضاري، حيث توافد إليه جموع غفيرة من الناس. احتضن السوق أكثر من سبعة آلاف متجر، كل منها يحمل في جنباته حكاية فريدة، تنسج خيوطها من تاريخ وثقافة غنية تتأصل في أعماق التراث.

تجول الشباب بين المتاجر، حيث كانت الأقمشة الملونة تتدلى من السقوف كأنها شلالات من الألوان، تتلألأ تحت ضوء المصابيح المتدلية. تداخلت أصوات البائعين المتعالية، كأنها سيمفونية من النداءات، تتناغم مع رائحة التوابل العطرة التي تملأ الأجواء. كانت الأجواء مشحونة بالحيوية، حيث تتشابك الألوان والأصوات والروائح في مشهدٍ يثير الحواس ويغمرها في تجربة حسية لا تُنسى.

في خضم هذا الزخم، كان خالد غارقًا في عالمه الخاص، مشغولًا بتوثيق تلك اللحظات الجميلة عبر عدسة كاميرته. كان يلتقط صورًا لكل

ما يلفت انتباهه، من الألوان الزاهية للمنتجات إلى تعابير البائعين الذين يروّجون لسلعهم بشغف.

بعد انقضاء ساعة من التجوال في سوق ميركاتو، اتخذ الشباب قرارهم بالعودة إلى الفندق. كانت خطواتهم تعكس روح الفرح والمرح، تتردد ضحكاتهم في الأجواء كأنها ألحان موسيقية تتناغم مع أنفاس المساء.

وعند محطتهم التالية، أقدم خليل على شراء آيس كريم للجميع، حيث تراقصت النكهات على ألسنتهم كأنها تتراقص في حفل سُكرٍ بهيج، مما أضفى سحرًا خاصًا على تلك اللحظات الوردية.

لكن، وكأنما كانت السعادة في تلك اللحظة تسير على حافة حبل مشدود، انطلقت صرخات غصون، تتردد في أرجاء الشارع كصدى رعب يمزق خيوط الفرح ويجعل الأجواء تتجمد في مكانها.

كانت تشير بإصبعها نحو الأشجار القريبة، ووجهها شاحب كخريف يكتنفه الضباب. نبرتها كانت توحي بتوترٍ عميق، وكأن قلقها قد تجسد في تلك الكلمات التي خرجت منها بصعوبة:

"رأيت فتاة صغيرة تركض هناك بذعر!"

أضافت، بصوتٍ يكاد يختنق، كأنها تحاول استجماع شجاعتها لتفصح عما رأته:

"أعتقد أنها في الثانية عشرة من عمرها، وكان خلفها رجلان يتعقبانها، وأحدهما يحمل سكينًا!"

تجمدت الأجواء من حولهم، وكأن الفرح الذي كان يملأ المكان قد تحول إلى كابوس مرعب يخيّم على الأفق، مما جعل قلوبهم تتسارع في صدورهم. كان خليل ينظر حوله بقلقٍ متزايد، ثم همس بصوتٍ منخفض، كأنه يتوجس من أن تُسمع كلماته:

"دعونا نعود إلى الفندق."

لكن نَفَس نظرت إليه بعينيها المتقدتين كالنيران، وقالت بحزمٍ لا يلين:

"لا تكن جبانًا يا أخي، دعنا نسرعلنجدتها!"

كانت كلماتها كشرارة أطلقت العنان لبركان من الشجاعة المتأججة في صدورهم، مما جعل قلوبهم تنبض في خفقان متسارع، بينما بدأت أقدامهم تتجه بحماسة نحو المكان الذي أشارت إليه غصون.

انطلقوا كالسهم، حتى وصلوا إلى الفتاة، لكن المنظر الذي واجههم كان مروعًا. وجدوا الفتاة ملقاة على الأرض، غارقة في بركة من الدماء،والسكين مغروسة في صدرها.

تساقط عرق خليل بغزارة، وجسده كان يرتعد من شدة الرعب الذي اجتاحه، بينما أجهشت غصون بالبكاء الهستيري، كان صوتها كصرخة مدوية تتردد في سكون الليل، كأنها تنادي العالم لإنقاذ ما تبقى من إنسانية في تلك اللحظة المروعة التي تجسد فيها الألم والفزع.

أما نفس، فقد تجمدت مشاعرها، واحتبست أنفاسها في صدرها، بينما اتسعت عيناها من هول المشهد الذي استقر أمامها. ثم انطلقت

تركض هنا وهناك، تبحث بعصبية عن الفاعلين، وكأنها تأمل في العثور على خيط رفيع يقودها إلى الجناة.

تجمد خالد في مكانه لبضع لحظات، كأنما سلبه الفزع القدرة على الحركة، لكنه سرعان ما استجمع شجاعته، وانحنى ببطء على جسد الفتاة، واضعًا سبابته على نبض رقبتها، محاولًا استشعار الحياة في ذلك الجسد المنهك الذي بدا كأنه قد فقد كل أثر للحياة.

في تلك اللحظة، وصلت دورية الشرطة الليلية، مُضيئةً المكان بأضوائها الساطعة، كان صدى صوت الدورية المهيب يتجلجل في الفضاء، مُخترقًا صمت الليل.

تجمعت حشود غفيرة من الناس حول موقع الحادث، حيث تداخلت الأجساد وتزاحمت الأنظار، كلٌ منهم يسعى جاهدًا لفهم ما يجري. ارتفعت الأصوات المتعالية، وتزايدت الهمسات المتبادلة، بينما كانت القلوب تخفق بقلقٍ عميق حول مصير الفتاة المجهولة، وعن الأسباب الغامضة التي قادت إلى هذه المأساة المروعة.

وصلت سيارة الإسعاف، محملةً بآمال إنقاذ الفتاة ونقلها إلى المستشفى. بعد ذلك اتخذت الشرطة خطوات سريعة وحاسمة لضبط الموقف المتفجر، حيث وضعت الأغلال في أيدي الشباب الثلاثة: غصون، خالد، وخليل.

في زحمة الفوضى العارمة التي كانت تسود المكان، انطلقت صرخة نفس من بعيد، تجتاز كل الأصوات الأخرى، "لماذا تعتقلونهم؟

اذهبوا وابحثوا عن الفاعلين الحقيقيين!" كانت كلماتها تنفجرٍ كالرعد، لكن صداها قوبل بصمت كئيب، إذ لم تجد صرخاتها آذانًا صاغية، بل وجدت نفسها محاطة بالعسكر لتُعتقل هي الأخرى، مما زاد من حدة الفوضى وأغرق الأزمة في عمق مظلم.

بينما كان الشباب الأربعة يُقادون نحو الحافلة، كان الجو يعج بالضجيج والفوضى؛ أضواء كاميرات الصحفيين تتلألأ في الأفق كنجوم مغتالة، وصيحاتهم تتعالى في طرح أسئلة لم تكن لتجد إجابة. كانت عبارات الاستنكار من الحشود تحيط بهم كعاصفة لا تنتهي، ترفع من حدة التوتر في المكان، وكأن كل شيء من حولهم كان يصرخ بأنهم يقفون في قلب أزمة كبرى لا يعرفون كيف سيخرجون منها.

صعد الشباب الأربعة إلى حافلة الشرطة،وعلامات الصدمة بادية على وجوههم. مع كل خطوة كانوا يأخذونها نحو المركز، كانت قلوبهم تخفق بشدة، وعقولهم تتشابك في دوامة من الأفكار المتضاربة، حيث كان عليهم مواجهة واقع مرير لم يتهيأوا له. بدا وكأنهم قد وقعوا في نفق لا مفر منه، محاطين بجدران من الخوف والقلق، وكأن كل ما حولهم كان يهمس بأنهم لم يعودوا أحرارًا.

عندما وطأت أقدامهم عتبة المركز، استقبلتهم جدران زنزانة ضيقة، كانت باردة كقلب متجمد، تنبض بصمت قاتل. كان الجو خانقًا، وكأن الزمن قد اختنق في هذا المكان الموحش، حيث كانت كل

لحظة تمر كالعمر بأسره. تسارعت دقات قلوبهم، تنبض بإيقاع متسارع، يرافقه شعور متزايد بالقلق.

ترددت في عقولهم أسئلة مرعبة، تتراقص كأشباح في ظلامٍ حالك: ما الذي سيحدث لهم؟ هل سيثبتون براءتهم؟ أم ستظل هذه الليلة المرعبة تطاردهم إلى الأبد؟ كانت تلك التساؤلات تتردد كأصداء في وادٍ مظلم، تنسجم مع ضيق الزنزانة، مغلقةً عليهم أبواب الأمل، وكأنهم محاصرون في متاهة لا مخرج منها، حيث تتلاشى الأحلام وتبقى الكوابيس.

مع إشراقة الفجر، استيقظت السيدة نشوة من نومها الخفيف، مثقلة بقلق مضاعف عما شعرت به ليلة أمس، كأن أعباء العالم قد تراكمت على كاهلها الضعيف. كانت عيناها تراقبان زوجها أحمد، الذي كان غارقًا في نوم عميق، وكأنه يحتضن أحلامه بعيدًا عن قسوة مشاعرها. تساءلت في داخلها: "لماذا لا أستطيع أن أنام كما يفعل؟ لماذا يسيطر علي هذا القلق؟"

نهضت من سريرها الدافئ، واتجهت نحو التلفاز بخطوات خفيفة، محاولةً العثور على أي شيء يشغلها عن تلك المشاعر الثقيلة التي كانت تشد قلبها إلى أعماق بحر القلق المظلم. تنقلت بين القنوات كفراشة ضائعة.

استقرت أخيرًا على قناة إخبارية محلية، حيث جذب انتباهها عنوان الخبر العاجل: "وأخيرًا، تم العثور على ابنة رجل الأعمال السيد أربيس آدم بعد أسبوع من اختفائها، ولكن في حالة حرجة."

انطلقت المذيعة بصوتها الجاد والعميق، قائلة: "لقد تلقينا معلومات مسربة تفيد بأن ماريا أربيس، ابنة رجل الأعمال السيد أربيس آدم، المختفية منذ أسبوع، قد تم العثور عليها مُطعونة وفي حالة حرجة. السلطات تحقق في القضية مع أربعة شباب يُعتقد أنهم متورطون في الحادث."

شعرت نشوة بتعاطف عميق مع معاناة تلك الفتاة وأسرتها، وكأنها تعيش تلك اللحظات الصعبة معهم.

بينما كانت نشوة تركز نظرها على الشاشة، بدأت صور الفتاة تتوالى، ومع كل لقطة، كان قلبها يتقلص في صدرها كأنه يتعرض لضغوط لا تُحتمل. فجأة، برز وجه المتهمين في تلك القضية المأساوية: خالد، خليل، نفس، وغصون. كانت حالتهم تثير الشفقة، أيديهم مكبلة، ووجوههم متوارية خلف أذرعهم، يحاولون الهروب من عيون كاميرات الصحافة التي تلاحقهم بلا هوادة.

اتسعت عينا نشوة في ذهول، وكأنها قد سقطت في نفق من الخيال. كانت تعتقد أن الشباب نائمون في غرفهم، بعيدين عن كل هذا الخراب الذي يحيط بهم، لكن الواقع كان أقسى من كل تصوراتها. ها هم الآن، أمامها، في مشهد يكاد يقطع الأنفاس.

تصاعد الخوف في صدرها كالدخان الكثيف، شعرت وكأن قلبها قد انزلق إلى قاع بئر مظلم، حيث لا ضوء ينفذ، ولا أمل يلوح. محاولاتها المستميتة للسيطرة على مشاعرها باءت بالفشل، وانفجرت في صراخ مدوٍ، تردد صداه في أرجاء الغرفة كعاصفة تعصف بكلِ

شيء حولها، مطلقة العنان لمشاعرها المكبوتة. ثم، سقطت مغشياً عليها.

في تلك اللحظة، استفاق أحمد من نومه، يملؤه الفزع، على صوت صراخ زوجته الذي كان كجرس إنذار يقطع سكون الفجر. فتح عينيه على مصراعيهما، ليجدها ملقاة على الأرض، مما أثار في قلبه حالة من الذعر العميق.

توجهت عيناه نحو التلفاز، وارتجف جسده عندما رأى صور خالد، خليل، نفس، وغصون في ذلك المنظر المأساوي. اجتاحته مشاعر غامرة، وكأن العالم قد انقلب رأسًا على عقب، وكأن كل شيء كان في حالة من الفوضى. تلاطمت الأفكار في رأسه، والأسئلة تتردد في ذهنه: كيف حدث ذلك؟ متى خرج الشباب من الفندق؟ كيف سأتصرف وأنا لا أعرف أحدًا هنا؟ تركته هذه التساؤلات في دوامة من الحيرة والقلق، وكأن كل شيء حوله قد فقد معناه.

حاول أحمد جاهدًا إيقاظ نشوة، لكن محاولاته باءت بالفشل، وكأنها غارقة في عالم آخر. لم يكن أمامه خيار سوى نقلها إلى المستشفى، حيث تم حقنها بحقنة مهدئة لتخفيف توتر أعصابها. بعد أن اطمأن على حالتها، بدأ يشعر بكثافة الضغط تتزايد في صدره، كأن ثقل العالم كله قد استقر عليه. كان عليه أن يتصرف بسرعة لتبرئة أولاده وإعادة الأمور إلى نصابها، قبل أن يبتلعهم هذا الظلام الذي يحيط بهم.

توجه نحو مركز الشرطة، حيث كانت أفكاره تتصارع في داخله كأمواج عاتية. عند وصوله، وقف أمام المحقق، قدم نفسه بوضوح، وطلب مقابلة أبنائه. أحضر العسكري الشباب إلى غرفة المحقق، حيث كانت وجوههم شاحبة، حاول أحمد طمأنتهم، مُخبرًا إياهم بأنه هنا لمساعدتهم، وطلب منهم أن يرووا له ما حدث.

بينما كانوا يروون وقائع الحادث، جاء اتصال من المستشفى يحمل خبرًا يحمل في طياته بعض الأمل: الفتاة أصبحت في حالة جيدة وجاهزة للاستجواب. أصدر المحقق أمرًا بإعادة الشباب إلى السجن، ثم توجه إلى المستشفى. مشاعر القلق والأمل تصاعدت في صدر السيد أحمد والشباب الأربعة، وكأنهم جميعًا في قارب صغير وسط عاصفة، يتطلعون إلى شاطئ الأمان.

اجتمع المحقق بالفتاة، حيث كانت عيناها تعكسان بوضوح قصة الألم والمعاناة التي مرت بها، كأنهما كانتا نافذتين تطلان على جحيم من الذكريات المؤلمة. بدأت تتحدث بصوت هادئ لكنه مليء بالتوتر، قائلةً: "زايدون، العامل السابق لدى والدي، هو من قام بخطفي وطعني. لقد كان طمعه في ثروة والدي هو الدافع وراء اختطافي. كان يخطط مع صديقه لطلب فدية كبيرة مقابل إعادتي إلى عائلتي."

تابعت الفتاة، وملامح الخوف لا تزال واضحة على وجهها: "لكن الأمور تغيرت عندما تعرفت على زايدون وتمكنت من الهروب. كان هروبي كالكابوس بالنسبة لهم، حيث كانوا في أثري، يلاحقونني بلا رحمة. كانت نواياهم بشعة، فقد أرادوا التخلص مني

بطريقة وحشية باستخدام السكين، كأنهم كانوا يرغبون في محو كل أثر يدل على جريمتهم."

أخذت الفتاة نفسًا عميقًا، وكأنها كانت تسعى لاستجماع شجاعتها المبعثرة في زوايا روحها المتعبة. ثم، بصوت متهدج يختلط فيه الخوف بالامتنان، أضافت: "ولولا رؤية زايدون وصديقه لمجموعة من الشباب يركضون نحونا، لما تركوني حية. كنت سأكون في أعداد الموتى، لكن بفضل تلك المجموعة من الشباب، أنا لا زلت على قيد الحياة."

حين تكشفت الحقائق كزهرة تتفتح في ضوء الفجر، أزيح الستار عن هوية الجناة، وأطلق سراح الشباب، في تلك اللحظة، غمرت السعادة قلوبهم، فتضرعوا إلى الله، شاكرين، يرفعون أيديهم إلى السماء، بينما تُطلق شفتاهم كلمات الحمد والدعاء، كانت أصوات قلوبهم تتعالى في تناغم، مفعمة بالامتنان والفرح لما مَنَّ به الله عليهم من الخلاص.

كانت تلك النهاية بمثابة بداية جديدة لهم، حيث بدأت أحلامهم تعود لتضيء دروبهم المظلمة من جديد. وكأنما انبعثت أشعة الأمل لتغمر قلوبهم، معلنةً عن فصل جديد من حياتهم، يتوقون فيه إلى غدٍ مشرق."

ـالفصل الثانيـ

"أصداء تحت ضوء القمر"

الـجـزء الأول

بعد أنِ انكشفت الحقيقة أمام والد ماريا، السيد أربيس، الذي كان يُعرف بثرائه الفاحش، حيث كانت تمتد شركاته كجذور عميقة في أرض إثيوبيا وخارجها.

بصوتٍ يحمل نبرة من الجدية واللطف، وجه السيد أربيس حديثه إلى السِّيد أحمد، معبراً عن رغبته في أن يستضيفهم لمدة أسبوع. كان ذلك بمثابة تعبير صادق عن الامتنان لما قام به الشباب في إنقاذ ابنته من براثن الموت. لم يتردد أحمد في قبول الدعوة. ارتسمت على وجه السيد أربيس ابتسامة دافئة، وهو يقول: "غداً صباحاً سأرسل لكم السائق ليأخذكم إلى قصري."

بعد ذلك، توجه أحمد والأولاد إلى المستشفى، حيث كانت نشوة ترقد في حالة من السكون. داخل الجدران البيضاء، بدت نشوة كأنها غارقة في عالم آخر تحت تأثير المنوم. بعد ربع ساعة، بدأت

رموش عينيها الشقراء تتحرك ببطء كأنها تستعيد وعيها من غفوة عميقة. أمسك أحمد بيدها برفق، وقبلها بحنان، ثم همس في أذنها بصوت مليء بالعاطفة: "حبيبتي، حان الوقت لتعودي إلينا. افتحي عينيك."

فتحت نشوة عينيها ببطء، وكأن كل حركة تتطلب مجهوداً شاقاً. سألت بصوت خافت متسائلة: "أين أنا؟ ما هذا المكان الذي أجد نفسي فيه؟"

نظرات أحمد كانت مليئة بالقلق، وهو يجيب بصوت هادئ لكنه حازم: "ألا تذكرين ما حدث، حبيبتي؟"

توسعت عينا نشوة فجأة، ثم همست بقلق متزايد: "أولادي، أين هما؟ هل هما بخير؟"

في تلك اللحظة، كسر صدى أصوات الشباب سكون الغرفة، حيث ركضوا نحوها واحتضنتهم بشغف، بينما كانت الدموع تتساقط من عينيها. استفسرت بصوت مفعم بالخوف والقلق: "ما الذي حدث؟ أخبروني."

بدأ الأبناء بسرد تفاصيل ما جرى، وكأن كل كلمة تنطق بها أفواههم كانت تفتح جراحاً في قلب نشوة. كلما تذكروا الأحداث، كانت دموعها تتدفق أكثر، كأنها نهر من الألم الذي لا ينضب. نظرت إليهم بعيون مليئة بالرجاء، وطلبت بلهجة متوسلة: "أرجوكم، لا تكرروا ذلك مرة أخرى. لا أستطيع تحمل المزيد." وعدوها بذلك، واحتضنوا بعضهم في لحظة من الحنان، حيث تجسدت قوة الحب في تلك اللحظة، كأنها درع يحميهم من كل ما هو قاسٍ في الحياة.

بعد لحظات، أذنت الطبيبة لنشوة بالخروج، وعاد الجميع إلى الفندق حيث كانت الأجواء مشبعة بالراحة بعد تلك اللحظات العصيبة التي عاشوها.

طلب أحمد من مطعم الفندق مجموعة من الأطباق الشهية، وكأن الطعام سيكون بمثابة دواء لقلوبهم المتعبة. وبعد أن تذوقوا الأطباق اللذيذة، انصرف الجميع إلى غرفهم ليأخذوا قسطًا من الراحة، محاولين نسيان ما حدث.

في صباح اليوم التالي، بدأ الجميع في التحضير للذهاب إلى قصر السيد أربيس.

ارتدى أحمد بدلة سوداء أنيقة، مما أبرز لون بشرته البيضاء وجمال جسده الرشيق. صفف شعره الكثيف الناعم البني، ذا الخصلات الزيتونية، إلى الوراء بشكل أنيق، مما أضفى على ملامحه جاذبية خاصة تتناغم مع لون عينيه. وضع ساعته الثمينة وانتعل حذاءً جلدياً أسود، ليكتمل مظهره الأنيق.

أما نشوة، فقد اختارت فستاناً أسود طويلًا ضيقاً على جسدها الممشوق، مما أظهر أنوثتها بشكل رائع. تركت شعرها الأشقر الأجعد الطويل مسترسلًا على ظهرها، بينما برزت عيناها الزرقاوان بوضوح تحت سواد الكحل. لم تستخدم أي من أنواع المساحيق التجميلية، بل اكتفت بلون بشرتها البيضاء المائلة للحمرة، ولون شفتيها الوردية. تزينت بعقد طويل من اللؤلؤ حول عنقها الطويل، وانتعلت حذاءً أسود من الجلد، وحملت محفظة جلدية سوداء.

في الجهة الأخرى، كانت نفس "الصورة المصغرة لوالدها" ترتدي بنطلون جينز أسود وكنزة بيضاء مخططة باللون الأسود. ربطت شعرها الطويل الحريري البني المائل للزيتوني جانباً، وحملت حقيبة ظهر سوداء، بينما انتعلت حذاء بوت أبيض، مما أضفى عليها لمسة من العصرية.

أما غصون، فقد اختارت فستاناً رقيقاً أسود، مع حزام بني جلد داكن يحيط بخصرها الرشيق. سرحت شعرها الطويل الناعم الأسود على شكلٍ ذيل الحصان، مما أضفى عليها مظهراً حيوياً. انتعلت حذاءً بنياً ذا كعب عالٍ ليطيل من قامتها المتوسطة، وحملت حقيبة كتف تتناسب معً لون حذائها.

وأخيراً، اتفق خليل، "الصورة المصغرة لوالدته"، مع خالد على ارتداء شميز أبيض وبنطلون ترابي، مع حذاء أبيض، ليعكسا روح الشباب والحيوية.

في تمام الساعة العاشرة صباحًا، توقفت السيارة الفارهة بتأن أمام مدخل الفندق. نزل الجميع، باستثناء خالد الذي تأخر قليلاً في حزم حقيبته.

مرت دقائق معدودة، ثم ظهر خالد أخيرًا. وعندما لمحته نفس، أسرت أنظارها أناقة ملابسه التي كانت تعكس جسده المفتول الطويل، وخصلات شعره البني المتناثرة برقة على وجهه.

ابتسمت غصون ابتسامة مشرقة، وقالت: "أخي، إنك متألق اليوم."

رفع خالد خصلات شعره عن عينيه العشبيتين، وأجاب بابتسامة خجولة تنم عن سعادة داخلية: "شكرًا، حبيبتي."

بينما كانت السيارة تنزلق برشاقة على الطريق المؤدي إلى القصر، كانت العائلة تنظر بإعجاب إلى روعة الأحياء المحيطة، التي تكتظ بالقصور الفخمة. وأخيرًا، توقفت السيارة أمام قصر مهيب، محاطًا بحديقة شاسعة تنبض بالحياة.

نزل السائق برشاقة، انحنى بأدب ليفتح لهم أبواب السيارة، في حين قام الحراس بفتح "البوابة" الضخمة للقصر، المزينة بنقوش أوروبية مدهشة. انفتحت "البوابة" لتظهر حديقة غنّاء، حيث تتراقص الأزهار والأشجار المتنوعة برفق مع نسيم الصباح العليل. أمام المدخل الرئيس للقصر، كانت تمتد سجادة حمراء، محاطة بتماثيل لحوريات البحر ومسابح مائية ذات أشكال رائعة. تملك الدهشة العائلة، حيث اتسعت عيونهم بإعجاب، وكانت الابتسامات تعكس انبهارهم بما رأوا.

عند مدخل القصر، استقبلهم الخدم بترحاب حار، حيث كان السيد أربيس وزوجته شاشاج وأبنتهما مارتا التوأم لماريا في انتظارهم، والابتسامات تعلو وجوههم. رحبوا بهم بحرارة، ثم قادهم السيد أربيس إلى غرفة استقبال الضيوف الفاخرة،

حيث تم تقديم أكواب من القهوة الإثيوبية ذات المذاق الساحر، التي كانت تفوح منها روائح غنية تأسر الحواس.

في خضم تبادل الأحاديث الودية، انقضت نظرات الفضول من السيد أربيس نحو أحمد، وسأله برغبة في معرفة السبب وراء قدومه: "ما الذي دفعك وعائلتك إلى إثيوبيا؟ هل جئتم لاستكشاف جمالها الطبيعي، أم أنكم تبحثون عن إقامة دائمة وفرص عمل هنا؟"

أجاب أحمد بفخر، وكأن كلماته كانت تعبر عن أحلامه المخبأة: "جئت من أجل رسالة الدكتوراة الخاصة بي. أسعى للبحث عن فئة من الناس الذين يتمسكون بالحياة البدائية. لقد علمت أن قبائل السورما الإثيوبية تعيش هذه الحياة، لذا أريد الذهاب إليهم لتدوين كل ما يتعلق برسالتي."

ابتسم السيد أربيس، ثم قال: "يبدو أن القدر قد أتى بكم لإنقاذ ابنتي. لكي أساعدكم في الذهاب إلى قبائل السورما."

نظر أحمد إلى السيد أربيس بلهفة، سائلًا: "هل ستذهب معنا إلى هناك؟"

أجاب أربيس بثقة: "نعم، سأرافقكم أنا وعائلتي. فزوجتي تنتمي إلى هذه القبيلة."

انطلقت عينا أحمد تتلألأ من شدة الفرح، وابتسم قائلًا: "يالها من صدفة رائعة!"

الجـــزء الثـــاني

في الزاوية البعيدة من غرفة استقبال الضيوف، ارتفعت ضحكات النساء كأنها ألحان رقيقة تتناغم مع أجواء المكان، حيث بدت بينهن روابط ودية دافئة، كأنهن نسجن خيوط الألفة في فضاءٍ من السعادة. كانت شاشاج، بعيونها المتلألئة وابتسامتها التي تشع دفئًا، تسرد لهن حكاية زواجها من السيد أربيس، وكيف اجتاز عواصف المعاناة حتى نال شرف الارتباط به. كانت كلماتها تتدفق كجدول ماء صافٍ، تنقل الحضور إلى عوالم من الذكريات والأحاسيس. ومع انقضاء سًاعة من الأحاديث الممتعة، حان وقت تقديم وجبة الغداء.

في غرفة الطعام، اجتمع الجميع حول طاولة فاخرة، تتلألأ أطباقها بألوان زاهية، حيث كانت عائلة السيد أحمد تتسم بالانتقائية في اختيار الأطباق، إذ تميزت غالبية الأطباق بلحومها النيئة. ومع ذلك، لم يكن هناك ما يمنعهم من الاستمتاع بطعم الزجني، الذي كان يذوب في الفم، بينما عبق عصير الطج يملأ المكان بنكهته الفريدة، كأنه يروي قصة من زمن بعيد.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، تقدمت السيدة شاشاج بخطوات رشيقة نحو الطاولة، حاملةً وعاءً من الفخار يحتوي على ماء صافٍ، ومنشفة ناعمة، وعطرٍ فواح. برفقٍ وعناية، غسلت يدي زوجها، ثم

نشفتها بلطف، ومسحت فمه بحركاتٍ رقيقة، بينما كانت الأنظار تتجه نحوها باستغراب، كأنها تؤدي طقوسًا غامضة. ثم، في لحظة من الرقي، أخذت العطر ورشت منه على يديه، مما أضفى لمسة من الأناقة على الأجواء.

بعد وجبة الغداء، ذهب السيد أربيس لإخراج ابنته ماريا من المستشفى. وفي هذه الأثناء، زين الخدم بمساعدة الشباب حديقة القصر بالبالونات احتفالًا بعودة ماريا. وعندما عاد السيد أربيس برفقة ابنته ماريا، بدأت مراسيم الاستقبال، وامتلأت الحديقة بأصوات الزغاريد التقليدية والأغاني المبهجة.

بدأ السيد والسيدة بالرقص، وانضم إليهم الجميع في أجواء من الفرح والبهجة. ذُبحت الذبائح، ودُعيت الناس للعشاء، ثم تناولوا الحلويات وشربوا العصائر المنعشة.

بعد إنتهاء الإحتفال، طلب السيد أربيس من الجميع الانتقال إلى الحديقة للاستمتاع بسهرات تحت ضوء القمر. أحضر الخدم القهوة للجميع، وطلبت السيدة شاشاج من خادمتها إحضار العود. بدأت بالعزف والغناء، وكان صوتها الشجي يأسر القلوب، مما جعل عائلة أحمد تنبهر وتتمايل على أنغامها.

عندما انتهت من الغناء، طلب السيد أربيس سماع بعض النغمات العربية، فأشار الجميع إلى خليل. اجتمع الجميع حوله، طالبين منه أن يغني. وافق، وبدأ صوته العذب يتردد في أرجاء المكان، مما أضفى جواً من السعادة والانسجام.

بدأت عائلة أحمد بالرقص على أنغام الدبكة اللبنانية، وأبدت عائلة أربيس إعجابها بالغناء والرقص اللبناني، حيث كانت الابتسامات تعلو وجوههم، وتعلو أصواتهم بالضحك والفرح.

بعد ليلة ساهرة تحت ضوء القمر، دعا السيد أربيس عائلة أحمد للإقامة في جناحهم الخاص، الذي يتكون من ثلاث غرف، كل منها تحتوي على حمام وشرفة تطل على حديقة القصر. كانت عيونهم تتلألأ بالدهشة والامتنان، وكأنهم يعيشون في حلم جميل.

انبهرت عائلة أحمد بجمال الغرف وديكورها الفخم، حيث كانت الألوان الدافئة والأثاث الفاخر يضفيان لمسة من الفخامة على المكان. بعد لحظات من الاستمتاع بجمال الغرف، دخل كل منهم إلى غرفته للاستعداد للنوم. قبل أن يغفو السيد أحمد، سمع ضحكة نشوة، فسألها بفضول: "لماذا تضحكين؟"

أجابت وهي تبتسم: "تذكرت ما فعلته السيدة شاشاج بعد العشاء." ضحك أحمد وقال ممازحًا: "لماذا لا تفعلين لي مثلها؟" فضحكت نشوة وضربته بحنان على كتفه، ثم قالت: "دعنا ننام، فقد كان يومًا متعبًا." هز رأسه برضا، وأطفأ الأضواء، ليغرق المكان في سكون الليل.

في غرفة نفس وغصون، نامت نفس على الفور، بينما خرجت غصون إلى الشرفة لتستمتع بجمال القمر الذي يضيء حديقة القصر، مستحضرة صوت خليل وهو يغني بألحانه العذبة.

في غرفة خالد وخليل، قال خالد متسائلًا: "لماذا قامت السيدة شاشاج بغسل يدي زوجها بعد العشاء؟ إنها امرأة مثالية." أجاب خليل برأيه: "نعم، لكنني لا أحب هذا التصرف." فرد خالد: "أنا معجب بولائها لزوجها وصوتها العذب. السيد أربيسٍ محظوظ بها. ماذا عن فكرةٍ الزواج من ابنتها؟" ضحك خليل طويلًا، ورمى المخدة على خالد قائلًا: "أطفئ الأضواء ونام."

بعد أسبوع من الإقامة في قصر السيد أربيس، قررت العائلتان الذهاب إلى قبائل السورما. قبل المغادرة، قال السيد أربيس بقلق: "هل أنتم متأكدون أنكم تستطيعون العيش هناك؟ فهم يسكنون في الخلاء، يشربون من النهر، يطبخون على الحطب، يطبلون ويرقصون طوال الليل، ولا يوجد لديهم إنترنت أو كهرباء.

أجاب أحمد بحماس: "سنستطيع بإذن الله، وسنعيش المغامرة." كانت عينيه تتلألأ بشغف، وكأنها تعكس روح المغامرة التي تنتظره في تلك القبائل البعيدة.

ـالفصل الثالث

"استقبال غير متوقع: بين التقاليد والتغيير"

الـجـزء الأول

استعدَّ كلٌ من عائلة السيد أحمد وعائلة السيد أربيس للذهاب إلى قبائل السورما. حيث حزموا حقائبهم بعناية، وضجّت الأحاديث بين الشباب حول التجارب التي ستجمعهم في تلك الأرض البعيدة. ومع حلول ساعات الليل، خلدوا للنوم باكرًا.

عند بزوغ شمس الصباح، استيقظت عائلة أحمد بكامل نشاطها، وقلوبهم تتراقص شوقًا لاكتشاف الحياة الأصيلة لقبائل السورما. تناولوا وجبة الإفطار سريعًا، وكأن الوقت يلاحقهم، ثم انطلقوا إلى المطار المحلي برفقة عائلة السيد أربيس، الذين كانوا يشاركونهم نفس الحماس.

عند وصولهم إلى المطار، صعدوا على متن الطائرة التي كانت تخترق سماءً زرقاء صافية. مرت الساعة وبعضِ الدقائق وكأنها لحظة، حتى هبطت الطائرة بلطف في مطار مدينة تدعى جينكا. استقبلتهم أجواء جديدة تضج بالحياة، حيث ركب أفراد العائلتين سيارة متجهين إلى قلب قبائل السورما.

في الطريق نحو قبائل السورما، كانت الرحلة تتجلى كقصيدة طبيعية تنسج أحداثها أمامهم. سادت أجواء من الارتياح والدهشة في قلوب الجميع، حيث تراقصت الأشجار برفق مع نسمات الهواء العليلة، وكأنها تعزف موسيقى هادئة تعبر عن فرحتها بقدومهم.

كانت حقول الحشائش تفترش الأرض كبساط أخضر بديع، ينسج لوحة فنية تنبض بالحياة، بينما كانت مياه الأنهار الجارية تتلألأ تحت أشعة الشمس، تلمع كأنها قطع من الفضة تتراقص في ضوء النهار.

وارتفعت الجبال الشاهقة، تراقبهم بعظمة وصمت رهيب، وكأنها تروي قصص العصور القديمة التي شهدتها. أما السماء، فقد تزينت بالسحب البيضاء التي تتزاحم في مشهد ساحر يأسر الأنفاس.

عندما وصلت عائلة أحمد إلى وجهتهم، انبهروا بما رأته أعينهم. كانت المناظر أمامهم غريبة ومفاجئة؛ فقد شاهدوا أناسًا يعيشون حياة بدائية، يرتدون ملابس بسيطة تكاد تكون شبه عارية، وتظهر عليهم ملامح الحياة القاسية.

أكواخهم المتواضعة، المبنية من مواد طبيعية، كانت تعكس أسلوب حياة مختلف تمامًا عن عالمهم المألوف.

لم ينزل من السيارة سوى السيد أربيس وزوجته وبناته، حيث توجهوا نحو الرئيس المحلي للتفاوض بشأن عائلة أحمد وهدف زيارتهم. كانت الأجواء مشحونة بالتوتر، إذ كان الجميع يترقب ما ستسفر عنه هذه المفاوضات. كانت الأنفاس محبوسة، والقلوب تخفق بشغف، في انتظار نتائج هذه اللقاءات التي قد تغير مجرى الأحداث.

في البداية، قوبل طلبهم برفض قاطع من الرئيس، مما أثار قلق خليل، الذي كان يراقب المشهد من نافذة السيارة. حيث ارتسمت على وجهه ملامح الخوف والقلق، اتسعت عينيه واهتزت شفتاه، وقال بصوت مرتجف: "أبي، دعنا نعود، لا أستطيع العيش هنا، لم أكن أتوقع هذا."

رد أحمد على ابنه بصوت هادئ، محاولًا تهدئته، بينما كانت ملامح وجهه تعكس مزيجًا من الحزم والقلق. قال: "اصمت، دعنا ننتظر قليلًا." كانت كلماته تحمل في طياتها الأمل والثقة، رغم أن قلبه كان ينبض بالقلق. كانت نظراته تتجه نحو الرئيس، محاولًا قراءة تعابير وجهه، آملًا أن تتغير الأجواء لصالحهم.

بينما كان الرئيس مصممًا على موقفه، طلبت السيدة شاشاج الإذن للتحدث. قالت بلطف وخضوع: "رئيسي، هل تسمح لي بالتحدث؟" فأجاب برضا: "نعم، تفضلي." بدأت تحكي له بحرارة كيف أن هذه الأسرة أنقذت حياة ابنتهما ماريا، التي تعتبر من أحفاد هذه القبيلة العزيزة. كانت كلماتها تتدفق كالنهر، تحمل معها مشاعر الامتنان والتقدير، مما جعل الرئيس يتراجع عن موقفه، وقبل استضافتهم.

توجه السيد أربيس إلى عائلة السيد أحمد، وطلب منهم النزول من السيارة والذهاب لمقابلة الرئيس. بينما كانوا يمشون، كانت أعين أفراد القبيلة تلاحقهم بنظرات غريبة، يتهامسون فيما بينهم، والأطفال يركضون حولهم، تارة يقتربون وأخرى يبتعدون خوفًا منهم.

رحب الرئيس بالسيد أحمد وعائلته، ثم قال بصوت هادئ لكنه حازم: "أنتم ضيوفي وتحت حمايتي، لكن يجب عليكم الالتزام بشروط

وعادات وتقاليد القبيلة، وعدم فعل أي شيء إلا بموافقتي.
وأتمنى أن تتوفقوا في مهمتكم هنا، وأن تقضوا أجمل الأوقات بقربنا."
كانت ملامح وجهه تعكس الجدية، بينما كانت عينيه تحملان لمحة من الترحيب، مما جعل عائلة أحمد تشعر ببعض الاطمئنان وسط الأجواء المشحونة.

ثم أمر الرئيس بقرع الطبول والغناء ترحيباً بالضيوف. انطلقت الطبول تقرع بإيقاع مميز، وتعالت أصوات الغناء الجماعي، بينما بدأ أفراد القبيلة برقصة خاصة تعبر عن فرحتهم بوصول الضيوف. كانت الرقصة مدهشة، تنبض بالحياة وتعكس فرحة صادقة، حيث تمايلت الأجساد في تناغم رائع، وكأنها تحتفل بقدومهم.

وفي أثناء الرقص، اقتربت إحدى الفتيات من خالد، ممسكةً بيده برقة، وبدأت ترقص معه. استغرب خالد لهذا الموقف، لكن عمه هز رأسه مشجعًا له على الانغماس في اللحظة. انضم الجميع إلى الرقص، باستثناء نفس التي بدت منزعجة من رقص خالد مع الفتاة السورامية، حيث كانت تعبر عن مشاعر الغيرة بوضوح من خلال تعابير وجهها.

بعد انتهاء حفلة الاستقبال، أشار الرئيس إلى رجاله باستضافة عائلة السيد أحمد في كوخ الضيافة، ليأخذوا قسطًا من الراحة. كانت

الأجواء مفعمة بالود والترحاب، مما جعل عائلة آحمد تشعر بأنهم جزء من هذه القبيلة العزيزة.

بعد لحظات من وجود العائلة في الكوخ، نادى أحد رجال الرئيس. خرج خالد بتردد، وجهه يعكس مزيجًا من الحذر والفضول. ناوله الرجل وعاءين، وبنظرات متفحصة، أخذهما خالد إلى الداخل.

فتحت السيدة نشوة غطاء الوعاء الأول، وأعين الجميع تراقب، ارتسمت على وجوههم تعبيرات الاشمئزاز والقرف عندما رأوا اللحم مطبوخًا بطريقة غريبة، منبعثة منه رائحة نتنة. اقطبت السيدة نشوة جبينها وأطرقت ببصرها، ثم أغلقت الوعاء بسرعة.

ثم فتحت الوعاء الثاني، وفجأة اتسعت عينا الجميع بالذهول وشعروا بالغثيان عندما رأوا وعاءً مليئًا بالدم. ارتعدت أيديهم وتسارعت أنفاسهم، فتسابقوا للخروج من الكوخ للاستفراغ، وأخذت نفس الطعام ورمته بعيدا محاولة التخلص من هذا المنظر المقزز.

في تلك اللحظة، أدركت العائلة أن هذه الزيارة لن تكون مجرد تجربة ثقافية، بل اختبار حقيقي لحدود قدرتهم على التكيف مع عالم مختلف تمامًا عن عالمهم.

الجـــزء الثـــاني

حينما أسدل الليل ستارته المرصعة بالنجوم، انغمرت العائلة في سبات عميق، إذ كانت منهكة من عناء السفر الطويل الذي استنزف قواهم. ومع بزوغ شمس الصباح الباكر، بدا الشروق خجولًا، كأنه يغنّج سكان القرية في محاولة لإيقاظهم برفق وهدوء. في ذلك المكان، حيث لا حياة عصرية تلهث وراء متطلباتها المرهقة، كانت جميع الأمور تسير وفق نسق الأرض المتأصل في بساطتها.

كانت الطيور أول من يستيقظ، تملأ الأجواء بأصواتها العذبة، تليها ربما حيوانات نامت جائعة، تبحث عن فريسة تسد بها جوعها المتزايد.

ثم يبدأ الأفراد في الاستيقاظ، متوجهين نحو حقولهم للزراعة والرعي وجمع الحطب، إذ يعتمد سكان هذه القرية على الزراعة وتربية الأبقار والأغنام، مما يجعلهم لا يزالون في الطور الأول من مراحل التكوين الحضاري، حيث تتجلى بساطة الحياة وعمق الارتباط بالأرض.

في أوقات الظهيرة، حلّ رجال السيد أربيس القادمين من أديس أبابا، محملين بمعدات ثقيلة على متن مركباتهم، في استعداد دؤوب لصنع مسكن لعائلة السيد أحمد، بعد أن استأذن السيد أربيس الرئيس في هذا المسعى.

بدأ الرجال بالعمل، حيث انخرط السيد أحمد وخليل وخالد في هذا العمل، حيث شرعوا في إقامة منزلٍ خشبي، مكونًا من ثلاث غرف وصالة صغيرة، وحمام ومطبخ، محاطًا بشرفة أرضية تمتد حوله من جميع الجهات، كأنها ذراعا الطبيعة تحتضن هذا الصرح الجديد.

في الفناء الخارجي، تم ترتيب كراسي تحت مظلة شمسية، حيث يمكن للعائلة الاسترخاء والاستمتاع بلحظات من السكون والهدوء، بالإضافة إلى أرجوحة تدعو إلى السكينة والراحة. ومع انتهاء العمل، غادر السيد أربيس وعائلته ورجاله إلى أديس أبابا، تاركين خلفهم عائلة السيد أحمد في أحضان قبائل السورما، مع ما تحمله من عادات وتقاليد وأسرار عميقة.

دخلت العائلة إلى مسكنهم الجديد، حيث انبهروا بجماله البسيط ورونق تصميمه الأنيق. قاموا بتوزيع الغرف فيما بينهم: استحوذ أحمد وزوجته على الغرفة القريبة من المدخل الخارجي، بينما حصلت

نفس وغصون على الغرفة المطلة على الحمام، في حين نال خليل وخالد الغرفة الوسطى.

توجهت نشوة إلى المطبخ، وبدأت في إعداد وجبة العشاء بمساعدة نفس وغصون، حيث انطلقت أيديهما في تنسيق المكونات بحماس.

في الغرفة المجاورة، كان السيد أحمد منهمكًا في ترتيب كتبه ومراجعه، ساعيًا لخلق جو من النظام والترتيب. أما خالد وخليل، فكانا مشغولين في حديث خاص، يتبادلان الأفكار والآراء في همسٍ خافت.

بعد تناول وجبة العشاء الشهية، انصرف الجميع إلى غرفهم للنوم، لكن في منتصف الليل، استيقظت العائلة مذعورة من أصوات غريبة تتردد في أرجاء المكان. خرجوا من غرفهم بحذر، يحاولون استكشاف ما يحدث في هذا الليل الغامض.

فتح خالد نافذة الصالة ببطء، ليكتشف مجموعة من الشباب على بعد منهم، يدقون الطبول بحماسٍ متقد، بينما كانت مجموعة أخرى ترقص حول شعلة كبيرة من النيران.

قررٍ خالد الانضمام إليهم، لكن خليل نظر إليه بحيرة واستنكار، قائلًا: "هل فقدت عقلك؟ ألا تخاف منهم؟" أجاب خالد بثقة: "لماذا أخاف؟" ثم تدخل السيد أحمد متسائلًا: "خالد، إلى أين أنت ذاهب؟" رد خالد بتوسل: "عمي، دعني أذهب، لدي فضول لمعرفة سبب رقصهم في هذا الوقت المتأخر من الليل." ثم أضاف بحماس: "عمي، هل ستأتي معي؟"

وافق السيد أحمد، وسأل خليل: "هل ستذهب معنا يا خليل؟" أجاب خليل بتعجب: "لماذا أذهب؟ هل فقدت عقلي؟" خرج خالد وعمه معًا، وعند وصولهم، سأل خالد أحد الشباب بفضول: "ماذا تفعلون هنا؟" أجاب الشاب: "نحتفل." سأل خالد: "بماذا؟" قال الشاب بابتسامة: "بتعارف الشباب والفتيات، والفتاة هي من تختار الشاب الذي يرافقها، ويرقص معها." استغرب خالد وسأل: "هل يمكن أن يحصل بعد ذلك إعجاب وزواج؟" أجاب الشاب بثقة: "نعم." فقال العم ضاحكًا وهو يضع يده على كتف خالد: "دعنا نعود للمنزل، أخاف أن تختارك إحداهن للرقص معها." ضحك خالد، وقررا العودة.

فجأة، انقضت فتاة على يد خالد، طالبةً منه أن يبقى معهم. التفت خالد ليجدها نفس الفتاة التي رقصت معه يوم وصولهم، فسألت بابتسامة مشرقة: "ما اسمك؟" أجابها: "خالد." فقالت: "وأنا ريفاز."

ابتسمت وطلبت منه آن يرقص معها. استآذن خالد عمه بالبقاء معهم، فأذن له.

عاد السيد أحمد إلى منزله وحيدًا، فسأله أفراد عائلته عن خالد، فأخبرهم عن طلب الفتاة له بالسهر معهم وموافقته على ذلك. انصرف الجميع إلى النوم، ما عدا نفس التي شعرت بالانزعاج العميق من هذا الأمر.

سارعت نفس إلى غرفتها، وأخرجت منظارها من حقيبتها، ثم توجهت بسرعة إلى الشرفة. كانت تعتصرها نوبات الغضب والتوتر، وكأنما كانت تعيش في دوامةٍ من المشاعر المتضاربة. جرت الكرسي الخشبي وصعدت عليه، متكئةً على جدار الشرفة، وبدأت تتفحص المشهد بعناية عبر المنظار، حتى وجدت خالد يرقص بانسجام مع الفتاة. أثار هذا المشهد غضبها الشديد، فظلت تتجول على الشرفة متوترة ومغتاظة، حتى تعبت وجلست على الكرسي وغفت، تاركةً وراءها صدى مشاعرها المتأججة.

استيقظت نفس في الصباح الباكر على وقع أصوات الأطفال وهم يتجهون لجمع الحطب، فوجدت وردة صفراء تحت منظارها، مما أثار استغرابها. حاولت النهوض، لكنها شعرت بثقلٍ يثقل جسدها.

نظرت إلى نفسها لتكتشف أنها مغطاة ببطانية، فظنت آن والدتها هي من قامت بذلك.

دخلت نفس إلى غرفتها لتجد غصون ما زالت غارقة في سبات عميق. بخطى متأنية، توجهت نحو غرفة خالد وخليل، لتتحقق من عودة خالد إلى المنزل. أمسكت بمقبض الباب بدقة وحذر، وفجأة سمعت وقع أقدام تقترب من خلفها. سارعت إلى غرفتها وانتظرت برويّة حتى خفت اضطرابها.

بعد دقائق قليلة، خرجت إلى المطبخ حيث وجدت والدها ووالدتها يتناولان الشاي. نظر والدها إليها بدهشة، قائلًا: "حبيبتي، هذه أول مرة أراك تستيقظين باكرًا، هل هناك أمر ما؟" أجابت بوداعة: "لا، أريد فقط أن أذهب في نزهة بالقرية." قالت أمها بحزم: "لا، لن أسمح لك بذلك." توسلت نفس بعينين براقتين: "أبي، أرجوك اقنع أمي لتدعني أذهب." ابتسم والدها وقال: "سأذهب برفقتك." فابتهجت نفس وقامت لتقبله بشغف. بعد الانتهاء من وجبة الإفطار، خرجا معًا في نزهة إلى أرجاء القرية، حيث كانت الأجواء تنبض بالحياة وتنتظر اكتشافهما.

ـالفصل الرابعـ

"الذهاب في نزهة للتعرف على أسرار السورما"

الـجـزء الأول

انطلق الأب ونفس في نزهة خفيفة، حيث تراقصت أشعة الشمسِ الدافئة حولهما. كان النسيم العليل يُداعب أوراق الأشجار برفق، معزفًا أنغامًا هادئة تتناغم مع زقزقة العصافير وغناء الطيور.

بينما كانا يتقدمان في مسيرتهما، كان الأب غارقًا في أفكاره، مشغولًا بأبحاثه التي بدأها في هذا اليوم. أما نفس، فقد كانت عيناها تتلألأان بالفضول، تراقب كل ما يحيط بها بشغف.

في أرجاء الطبيعة، كان الأطفال منهمكين في جمع الحطب، وجوههم الصغيرة تتلألأ بالبراءة والنشاط كأشعة الشمس المتلألئة. النساء كنَّ يطحنّ الذرة في هدوء، مُستغرقات في أعمالهن اليومية، بينما الشباب يتجهون نحو المراعي لرعاية الأبقار،

التي كانت تتجول في أراضٍ شاسعة، بعيدة عن صخب القرية وأصواتها المتعالية. كانت تلك اللحظات، ببهائها وعفويتها، تعكس جمال الحياة البسيطة، حيث تجتمع الطبيعة والناس في سيمفونية متكاملة من العيش المشترك.

لكن، كان هناك شيء غريب يثير فضول نفس، وهو شكل شفاه النساء المتدلية، الذي كانت تشد انتباهها بشكلٍ خاص. نظرت إلى والدها بعينيها الواسعتين، ووجهها يعكس تعجبًا صادقًا، وسألت ببراءة: "أبي، كيف تخلق النساء هذا الشكل الغريب لشفتهن السفلية؟"

ابتسم الأب، وأجابها بنبرةٍ هادئة تعكس معرفته العميقة: "عندما تبلغ الفتاة سن المراهقة، تُحتفي بها في طقس تقليدي خاص. في هذا اليوم المميز، تقوم والدتها أو إحدى النساء المقربات بفتح شفتها السفلية بأداة حادة وسط أجواء احتفالية تفيض بالحياة."

تجمدت نفس للحظة، وكأنها تحاول استيعاب الفكرة، بينما كانت ملامح الدهشة تعكس على وجهها. تابع الأب حديثه، "بعد أن تتعافى الفتاة من هذه العملية، تضع قرصًا صغيرًا للتزيين. ومع مرور الوقت، ومع كل قرص جديد تضعه، يكبر حجمه تدريجيًا ويتدلى أكثر وأكثر."

سألت نفس بفضول: "ولماذا يفعلن ذلك؟" فأجابها والدها: "من أجل الجمال، عزيزتي. فكلما زاد حجم القرص في شفاه الفتيات، زادت جاذبيتهن في عيون الشباب، وكان مهرهن أكبر البقرات في القبيلة، بل وأكثر عددًا."

ثم أضاف، صوته يكتسب نبرة أسطورية: "يُقال إن هذه العادة تعود إلى أسطورة قديمة تحكي عن ملك طاغٍ كان يستعبد نساء القبيلة. ولتجنب هذا الظلم، قررت النساء تشويه أنفسهن بوضع هذا القرص، لكن هذه الفكرة تحولت لاحقًا لتصبح مقياسًا للجمال لدى نساء القبيلة."

بينما كانت خطواتهم تتناغم مع همسات الرياح، لمحوا كوخًا صغيرًا تتعالى من جانبه أصوات النساء. كانت مجموعة منهن يطحنّ حبوب الذرة بطريقة تقليدية، ابتسمت نفس بترحاب، وسلّمت عليهن، فاستقبلنها بقلوب مفتوحة، ودعونها للانضمام إليهن. وافقت نفس بسرور، وكأنها وجدت مكانها بينهن، وجلست بجوارهن تتبادل معهن الأحاديث الممتعة. تركها السيد أحمد عندهن، عائدًا إلى جولته في أرجاء القرية.

كانت نفس في غاية السعادة، إذ طلبت من النساء آن يسمحن لها بالمشاركة في طحن الذرة. رحبّن بذلك، لكنها لم تستطع القيام بذلك بمفردها. تقدمت إحدى نساء القبيلة لتعليمها فن الطحن.

أثناء انغماسها في عملية الطحن، لم تستطع نفس كبح فضولها المتقد، فسألت المرأة: "لماذا تعملون شفاهكن هكذا؟" لم تكن مقتنعة تمامًا بإجابة والدها، وكانت تبحث عن تفسير أعمق.

فابتسمت المرأة وأجابت: "إنه تقليد قديم، نمارسه من أجل الزينة، لنصبح أكثر جمالًا، مما يجعلنا مطلوبات للزواج، وتصبح مهورنا مرتفعة."

عبرت نفس عن تعجبها، قائلة: "ألا يؤلمكم ذلك؟" ضحكت المرأة، وكأنها تتذكر تجربتها، وأجابت: "بلى، لكننا نحتمل."

استمرت نفس في طرح أسئلتها بفضول لا ينضب: "وكيف تصنعون هذا القرص؟" أجابت المرأة، وهي تشرح بحماس: "من الرمل والماء. نقوم بطحن الرمل ثم نعجنه مع الماء، ونشكل منه قرصًا، ونتركه لمدة يومين في الشمس حتى يجف."

قالت نفس بدهشة: "وكيف تثبتونه؟" فأجابت المرأة، وهي تبتسم: "بإزالة الأسنان الأمامية السفلية، وعمل سكة في القرص حتى تنطبق الشفاه داخلها."

رفعت نفس حاجبها، وقالت باستغراب: "لماذا تزيلون أسنانكن؟" نظرت إليها المرأة بعينين مليئتين بالحكمة، وأجابت بصوت هادئ: "لتفادي احتكاكها مع القرص." أعجبت نفس بقوة النساء وثباتهن، وابتسمت قائلة بإعجاب: "يا لكن من نساء قويات."

ثم استأذنت منهن لتوثيق تلك اللحظات الثمينة بصورة مشتركة. ومع خروجها لجهاز الكاميرا من حقيبتها، انتشرت نظرات الدهشة بين الحضور. تساءلوا بفضول: "ما هذا؟" فأجابتهم، موضحةً أنه جهاز يلتقط الصور، مما أثار فضولهم أكثر وجعلهم يقتربون.

بينما كانت تصوّر، ارتفعت ضحكات النساء في أجواء مفعمة بالحياة، وهن في حالة من الدهشة مما يعكسه الشاشة. وعندما قامت بعرض الصور عليهن، امتلأ المكان بأصداء الضحك المبهج ودهشة عابرة، وكأن تلك اللحظات قد تجسدت في إطار من الفرح لا يُنسى.

عاد أحمد ليأخذ نفس، وفي طريقهم إلى المنزل، صادف أحد رجال الرئيس الذي أبلغهم بدعوة الرئيس لهم لتناول وجبة الغداء.

عند وقت الغذاء، توجه السيد أحمد وعائلته إلى كوخ الرئيس. وعندما وصلوا، استقبلهم الرئيس بعبارات ترحيب دافئة في مجلس ضيافته. ثم طلب من رجاله إحضار الماعز والحجر كجزء من ضيافة عائلة أحمد.

سادت همسات الاستغراب بين أفراد العائلة، وبدأوا يتساءلون بصوت منخفض: "لماذا الحجر؟"

استعد أخو الرئيس للقيام بفعل غير مألوف، حيث رفع حجرًا ثقيلًا وضرب به رأس الماعز، مما أدى إلى سقوطه صريعًا على الأرض. ارتفعت صرخات خليل استنكارًا: "لماذا تقتله بهذه الطريقة بدلًا من ذبحه بالطريقة المعهودة؟"

كان رد الرئيس هادئًا، لكن في صوته نبرة حازمة: "نحتاج إلى دمه للشرب، وهذا هو الأسلوب الذي اتبعناه."

بينما احتدم الموقف، همس أحمد في أذن خليل، محذرًا: "تجنب الحديث، فإن انتقاد أي شيء آخر يعد خرقًا لشروط إقامتنا، وقد تؤدي عواقب ذلك إلى مشاكل نحن في غنى عنها." تسرب شعور من القلق إلى قلب خليل، مما جعله يتراجع إلى حالة من الصمت والترقب، متطلعًا إلى ما قد يحدث بعد ذلك في هذا الطقس الغريب.

بعد أن سقط الماعز صريعًا، اقترب منه رجل آخر وبدأ في استخراج الدم من جسده، ثم شرع في سلخه وإخراج أحشائه، مركّزًا بشكل خاص على كبده. في تلك الأثناء، قام قارئ الطالع، الذي يعتبر الوسيط الروحي بين أهالي القرية والإله توما، بتوقع مستقبل السيد أحمد.

وبعد أن درس قارئ الطالع العلامات الموجودة على كبد الماعز، أعلن بصوتٍ واثق: "إنّ طريقك آمن، وسيكون كل شيء على ما يرام."

بينما كان خليل يراقب هذا الطقس الغريب، لم يستطع كبح ضحكته، لكنه سرعان ما تذكر تحذيرات والده، فتمالك نفسه وحاول إخفاء مشاعره المتضاربة.

كان لدى قبائل السورما اعتقاد راسخ بأن إلههم، المعروف باسم "الإله توما"، يسكن في أحشاء الماشية، ويرسل لهم إشارات عبر كبدها ليخبرهم بما سيحدث في المستقبل. كانت هذه المعتقدات جزءًا لا يتجزأ من حياتهم اليومية، حيث اعتبروا أن كل ذبيحة تحمل في طياتها رسالة من الإله.

في تلك الأثناء، بدأ أفراد القبيلة بتقطيع لحم الماعز، وأشعلوا النار باستخدام العصي، حيث وضعوا اللحم على النار مباشرة لطهيه. كانت رائحة الشواء تتصاعد في الهواء. لكن عائلة السيد أحمد، التي كانت ضيفة في هذا المشهد الغريب، شعرت بالاشمئزاز من طريقة قتل الماعز وطريقة الطهي.

تبادل أفراد العائلة نظرات الحيرة والقلق، يتساءلون في همس: "كيف يمكننا تجنب تناول هذا اللحم؟" فقد كانت الطريقة التي تتبعها القبيلة في ذبح الماعز تُعتبر ميتة، ولا يجوز تناولها.

تجاذبتهم مشاعر متناقضة؛ من جهة، كانوا يحاولون احترام عادات القبيلة، ومن جهة أخرى، كانت قناعاتهم الدينية والأخلاقية تمنعهم من المشاركة في هذه الوجبة. كانت أفكارهم

تتجول في دوامة من القلق، متسائلين عن كيفية الخروج من هذا المأزق دون أن يجرحوا مشاعر مضيفيهم.

الجـــزء الثـــاني

تجمع الجميع لتناول وجبة الغداء. رئيس القبيلة، بكل هيبة وكرم، قدم لهم أوعية مليئة باللحم والحليب والدم، قائلًا بابتسامة عريضة: "تفضلوا واستمتعوا بطعم اللحم الشهي، فنحن لا نقدمه إلا في المناسبات الخاصة."

غصون سألت بفضول وهي تميل رأسها قليلًا: "ما هي وجبتكم الرئيسية؟" أجاب الرئيس بثقة: "نحن نأكل وجبة واحدة فقط في اليوم، وهي من حبوب الذرة."

السيدة نشوة، بنبرة مليئة بالاستغراب، قالت: "هل تكفيكم وجبة واحدة في اليوم؟" أجاب الرئيس بثقة وهو يومئ برأسه: "نعم، وصحتنا جيدة."

لاحظ الرئيس عدم تناول عائلة أحمد للحم، فسأل بدافع الفضول: "لماذا لا تتناولون اللحم؟" أجابت نشوة بهدوء وهي تبتسم: "نحن عائلة نباتية، نفضل الذرة ونستمتع بشرب الحليب."

لكن الرئيس، بلهجة تحمل شيئًا من التحدي وهو يضع يده على ذقنه، قال: "وماذا عن الدم؟" ردت نفس بثقة: "نحن نهدي قسمنا من الدم لك، سيدي، فنحن سنكتفي بشرب الحليب."

تأمل الرئيس في كلماتها، ثم اقترح بتأمل: "لماذا لا تجربونه؟ ستجدونه لذيذًا." تردد خالد للحظة، ثم قرر أن يخوض التجربة. أخذ رشفة من الدم، لكنه سرعان ما بصقه على الأرض، مما أثار ضحك غصون التي سألت بفضول وهي تبتسم: "كيف طعمه؟" أجاب خالد وهو يعبس: "له مذاق حامض."

سألت نفس بفضول: "كيف تحصلون عليه كل يوم؟" أجابت الزوجة الأولى للرئيس، وهي تضحك بخفة: "من عروق الماشية."

استفسرت غصون بحماس وهي تفرك يديها: "وكيف يتم ذلك؟" فأجابت الزوجة الثانية بحركة يد مرحة: "يقوم الشباب بربط الماشية من رقبتها، لكي يبرز الوريد، ويأتي شاب آخر ليخرج الدم باستخدام رمح، ثم يصب في وعاء لنشربه ساخنًا."

أضافت الزوجة الجديدة للرئيس، التي كانت تعتبر الزوجة الثانية عشرة له، وهي تومئ برأسها: "تكرر هذه العملية مرتين في اليوم،

نشربه في الصباح وبعد الظهر."

بينما كان الجميع يتحدثون، كانت نفس سارحة في خيالها تفكر في كل ما رأته وسمعته. كانت تتساءل عن معنى الجمال والتضحية، وكيف يمكن لعادات قديمة أن تشكل حياة الناس. كانت تشعر بفضول عميق تجاه هذه الثقافة، ورغبة في فهم المزيد عن أسرار السورما.

بعد الانتهاء من الطعام، أخذ رئيس القبيلة السيد أحمد في جولة استطلاعية للقرية، ورافقهم خالد. بينما بقيت نشوة ونفس وغصون مع زوجات الرئيس، أما خليل فعاد إلى المنزل.

وأثناء حديثهن، سألت السيدة نشوة زوجات الرئيس عن أولادهن، فأجابت إحداهن وهي تبتسم: "ذهبوا مع أولاد القبيلة لجلب الرمال من الجبال المحيطة بنا لصنع صحون جديدة لشفاتنا ."

بينما كان أحمد وابن أخيه في جولة مع الرئيس، وجدوا امرأة بجانب كوخها. أخبرهم الرئيس أنها المعالجة لأهل القرية، وأنها

تعالج بطريقة متوارثة عن أجدادها. طلب أحمد أن يقابلها ويتحدث معها، فأذن له الرئيس.

وهم في طريقهم إليها، جاءت امرأة تحمل طفلة في العاشرة من عمرها، كانت مريضة وتتألم بشدة. قالت والدتها وهي تبكي: "ابنتي تعرضت لأرواح شريرة أثناء سباحتها في النهر."

أخذت المعالجة الطفلة ووضعتها بين أرجلها، وكانت تضغط بقوة على أماكن متعددة من جسدها. أثناء الضغط، كانت تستخرج حجارة صغيرة من جسد الطفلة.

احتار أحمد من أين أخرجت تلك الحجارة، وكان خالد في حالة ذهول: "كيف يمكن لجسدها أن يفرز ذلك؟" لم يجد أحمد إجابات لما كان يراه، وكان مستغربًا كيف تعالج بدون فحص أو أدوات أو أدوية.

حاول خالد أن يمسك الأحجار، لكن المعالجة منعته، وكانت تتمتم على كل حجر وترميه بعيدًا وفي اتجاهات مختلفة. ثم أحضرت ورقًا من الشجر وفركته ودهنت بمائه جسد الطفلة، وهي تتمتم ببعض الكلمات. المفاجأة كانت عندما شفيت الطفلة وذهبت تجري، مما

ترك أحمد وخالد في حالة من الدهشة والفضول حول هذه العادات الغريبة.

تساءل أحمد في نفسه: "ما مدى تأثير هذه الممارسات على حياة هؤلاء الناس؟ وما هو سر هذه المعالجة؟" كانت الأسئلة تتزايد في ذهنه، مما جعله يشعر برغبة قوية في فهم المزيد عن هذه الثقافة الغامضة.

في تلك اللحظة، أدرك أحمد أن كل ما يحيط به يحمل في طياته أسرارًا عميقة، وأن رحلة اكتشافه لم تنته بعد.

الفصل الخامس

"رحلة إلى النهر"

الجزء الأول

بعد مضي أسبوع على تواجد عائلة أحمد بين قبائل السورما، دعا شباب القرية خالد وخليل للذهاب معهم إلى النهر لممارسة طقوس غسل المعدة والأجساد، وهو تقليد يكتسب قدسيةً خاصةً في ثقافتهم، يمارَس أسبوعيًا كطقس للتجديد الروحي والجسدي.

وافق خالد بشغف، إذ كان لديه فضولٌ عارمٌ لاستكشاف أسرار هذه الطقوس الغامضة، بينما تردد خليل للحظة قبل أن يقرر الانضمام إليهم. ورافقهم السيد أحمد مدفوعًا برغبتِه لفهم عادات وتقاليد هذه القبيلة لأغراض بحثه الأكاديمي.

عند وصولهم إلى النهر، استقبلتهم أجواء من السكينة والهدوء. كانت مياه النهر تتلألأ تحت أشعة الشمس، وبدأ الشباب في

إعداد المكان، حيث قاموا بصنع برك صغيرة من مياهه العذبة. ثم طحنوا أوراقًا من الأشجار المجاورة بعناية، ومزجوه بماء البرك. انحنى الجميع ليشربوا من هذا الخليط، وكانت الكميات التي استهلكوها مذهلة، مما جعل خالد يشعر بالدهشة، بينما كان خليل يراقب بذهول، عاكسًا عدم تصديقه لما يحدث أمام عينيه.

ثم جاء الجزء الأكثر غرابة، حيث أدخل الشباب أعوادًا في حناجرهم للإستفراغ، فتدفق الماء من أفواههم كالشلالات، مشكلًا مشهدًا غريبًا ومثيرًا.

لم يستطع خليل تحمل هذا المشهد الغريب، فاستفرغ مثلهم، مما جعل الجميع يضحكون، وترددت ضحكاتهم في الأرجاء.

بعد تلك اللحظة المتفجرة من الضحك، قام الشباب بطحن حجر خاص يتواجد بجانب النهر. بللوا أجسادهم بماء النهر، وبدأوا بفرك أجسادهم بمطحون الحجر، حيث كان كل واحد منهم يفرك جسد الآخر، في تناغم مثير يعكس روح الجماعة.

شاركهم خالد في هذا الطقس، حيث كانت الضحكات تتعالى، والجو مليئًا بالحيوية والنشاط. ثم عادوا إلى النهر لغسل أجسادهم، لتكتمل تلك الطقوس الفريدة.

عاد خالد إلى المنزل لتغيير ملابسه المبللة، بينما انطلق أحمد وابنه في جولة لاستكشاف القرية. كانت الأجواء مشبعة برائحة الأرض الرطبة، ونسيم الهواء يعبق بأصوات الحياة اليومية. أثناء سيرهم، لمحوا رجلًا عجوزًا، "حفرت صروف الدهر في وجهه أخاديد كثيرة، ولم يبقِ له الزمن إلا سنًا واحدًا متآكلًا في فكه الأسفل"، كان واقفًا عند حضيرته الصغيرة، حيث كانت لديه عدد قليل من الأبقار التي تعينه على قوت يومه، فهو لا يقدر على الذهاب كل يوم لمراعي البقر البعيدة.

اقترب أحمد وابنه منه، وسلما عليه. لفت انتباه أحمد بقرة مرمية داخل الحضيرة، فسأل العجوز عنها بفضول. أجاب العجوز بصوت هادئ، كأنما يخرج كلماته من أعماق قلبه: "إنها ميتة."

تساءل خليل بفضول: "ولماذا لا تتخلص منها؟" فأجاب العجوز بابتسامة حزينة، تحمل في طياتها عبء الفقد: "عندما تموت لدينا الماشية، نتركها لمدة يوم كامل لعل الروح تعود إليها."

تأمل أحمد في كلماته، معبرًا عن استغرابه: "وإذا لم تعد الروح إليها، ماذا تفعلون بها؟" رد العجوز وقد ارتسمت ملامح القبول على وجهه، كأنه يتحدث عن تقليد مقدس: "نقوم بسلخها وطبخها ونوزعها على أفراد القبيلة."

كانت كلماته تحمل عبق التقاليد، مما جعل أحمد وابنه يتأملان في عمق ثقافة هذه القبيلة.

ثم سأله أحمد عن طقوس الموت عندهم، فقال العجوز بصوت هادئ مع نظرة جادة، كأنما يستحضر ذكريات مؤلمة: "إذا مات أحد عزيز على القبيلة، الزوج أو الزوجة، نقوم بقتل بقرة بالحجر ونستخرج دمها وأحشائها." قاطعه خليل، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الاستغراب: "ولماذا ذلك؟"

أجاب العجوز وهو يعبس جبينه قليلًا، كأنما يتأمل في عمق المعنى: "نستخرج أحشائها لقراءة الإشارات الموجودة عليها التي يرسلها لنا الإله، لمعرفة مستقبل عائلة المتوفى. ونستخرج الدم لصبه أمام كوخ المتوفى بعد أن يقف أفراد عائلته خلف بعضهم. وإذا سار الدم بمسار معين، ندرك حينها أن روح المتوفى مرتاحة."

تعجب خليل مما سمعه، واعتصر قلبه شعور الأسى تجاه الجهل الذي يعيشون فيه، وحمد ربه على نعمة الإسلام.

بينما كان خالد داخلًا المنزل، خرجت "نفس" مسرعة، وارتطمت به، مما أضفى على وجهها مزيجًا من المفاجأة والحرج.

أمسكها قبل أن تسقط على الأرض، وكانت عينيه تتأمل تعبيرها المرتبك. عندما نظر في عينيها، رأى تألقًا خاصًا جعله يشعر بشيء من الفضول. أمسك بيدها برفق ليساعدها على التوازن، وسألها بصوت هادئ يحمل في طياته عذوبة اللحظة: "لماذا أنتِ مسرعة؟ هل هناك شيء مهم؟"

أجابت بفرح، وقد ارتسمت الابتسامة على شفتيها: "لا، إنني ذاهبة إلى النهر مع بنات القبيلة، وهم بانتظاري."

رد خالد بقلق، متجليًا في عينيه: "وهل سمحت لك عمتي؟"

قالت: "ذهبت لأخبرها، لكنني وجدتها نائمة. كتبت لها رسالة وتركتها بجانبها." ثم انطلقت تركض، ركض خالد خلفها ووقف أمامها، وبنبرة غيورة تحمل شيئًا من "الهيبة"، قال: "توقفي، لن أدعكِ تذهبي."

ردت عليه بغضب وبنبرة حادة: "ابتعد عن طريقي!"

نظر إليها بنظرة حادة، مما جعل القشعريرة تسري في عمودها الفقري.

وقفت متسمّرة في مكانها، ثم قال بنبرة مخيفة، وهو يشد على كل كلمة يقولها: "إن خطوتِ شبرًا إلى النهر، سيكون عقابك عسيرًا، هل فهمتِ؟"

لم تستطع الرد من شدة الصدمة، إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها خالد بهذا الحزم. صرخ: "لم تجيبي على سؤالي، هل (ف. ه. م. ت. ي)؟"

رفعت حاجبيها، تنظر إليه باستغرابٍ، والخوف يسيطر عليها. ثم انفجر خالد بالضحك الهستيري، قائلًا: "هل أرعبتك؟ أول مرة أرى الخوف في عينيك."

استمر في الضحك، فقالت متحايلة: "لم أخف منك، كنت أفكر فقط من أين أتيت بكل هذا الصوت؟"

رفع رأسه شامخًا وقال: "إنك تراوقين، اعترفي أنني أخفتك."

أشاحت برأسها جانبًا، ولم ترد عليه، مما جعل خالد يتأملها مبتسمًا، فقال: "سأذهب برفقتك لحمايتك."

أجابت بغضب: "ما دخلك أنت؟ أنا أستطيع حماية نفسي."

رد بصوت مليء بالحنية، وملامح وجهه تعكس اهتمامه: "أنا أخاف عليك، لن أدعك تذهبين وحدك."

ابتسمت ابتسامة عذبة، وضرب قلبها الفرح، لكنها حاولت إخفاء ذلك خلف قناع من البرود.

ثم قال خالد: "انتظري قليلًا، سأغير ملابسي وأحضر مذكرتي."
سألته: "ولماذا تأخذ المذكرة؟"
أجاب: "أنا أكتب كل شيء يحدث في حياتي."
قالت: "وهل كتبت عن ريفاز؟"
رد ليغيظها: "وما دخلك أنت؟"
أجابت بجرأة: "أظن أنها معجبة بك، وأنت كذلك تبادلها نفس الشعور."

ابتسم خالد ضاحكًا، وعيناه تتلألأ بمرح: "وكيف عرفتي ذلك؟"

ردت قائلة: "لاحظت ذلك بنفسي."

ضحك خالد ودخل لتغيير ملابسه، بينما كانت نفس تنتظره بفارغ الصبر، وعلامات الترقب تلوح على وجهها.

بعد أن غير خالد ملابسه وأخذ مذكرته، ذهب مع نفس إلى أماكن تجمع الفتيات. استأذنت نفس الفتيات بذهاب خالد معهن، فردت ريفاز بعجل: "نحن نرحب بذلك!" وكان واضحًا على وجهها ملامح الفرح، مما أثار غضب نفس.

كانت ريفاز برفقة خالد طوال الطريق، وكانا يتبادلان الأحاديث، مما جعل قلب نفس ينبض بالغيرة.

الجـزء الثـــاني

عند وصولهم إلى ضفاف النهر، طلبت نفس من خالد أن يجلس تحت الأشجار المتشابكة القريبة، ليمنح الفتيات الفرصة للاسترخاء والسباحة بحرية. كان ذلك عذرًا منها لإبعاده عن ريفاز.

ضايق ذلك ريفاز، وكانت تمشي وسط الأعشاب، تتمتم بكلمات غير مفهومة، وتجاعيد الغضب واضحة على جبينها.

انغمست الفتيات مع نفس في مياه النهر، حيث كنَّ يسبحن ويمزحن ويغنين، تتعالى ضحكاتهن كالألحان العذبة في الهواء.

فجأة، انقضَّ على صفوهن شابان من قبيلة أخرى، كان لظهورهما تأثير كالسهم الذي اخترق قلب الهدوء هناك. غضب الفتيات تزايد، وذهبت واحدة منهن نحو الشابين، طالبة منهما مغادرة النهر فورًا، لكنهما لم يستجيبا لها، بل زاد الأمر سوءًا عندما اندلعت مشاجرة. أقدم أحدهما على ضربها، فتعالت أصوات الفتيات بالصراخ.

كان خالد سارحًا في أفكاره، يتذكر تصرفات سارقة قلبه، عندما سمع صراخهن، استفاق من شروده. ركض مسرعًا باتجاههن، وعندما رآه الشابان، لاذا بالفرار.

ركض خالد ونفس خلفهما ونزلا عليهما بالضرب المبرح. جمدت اللحظة في أذهانهم، فيما توعد الشابان بالانتقام، تاركين خلفهم أصوات رائحة الخوف في المكان.

وصلٍ نبأ ما حدث في النهر إلى أحد رجال الرئيس، فذهب مسرعًا وأحضر الرئيس.

توجهت ريفاز نحو حضن الرئيس ودموعها تتلألأ في عينيها، قائلة بصوت مفعم بالقلق: "أبي، لقد تعرضنا لهجوم من قبل شابين من القبيلة المجاورة، وقد اعتديا على صديقتي."

تفاجأ كل من خالد ونفس، فقالا بصوت واحد: "ريفاز تكون ابنة الرئيس؟!"

ثم أضافت ريفاز، وهي تشير بفخر إلى خالد: "أبي، هذا الفتى فعلًا شجاع، لقد دافع عنا وضربهما بشجاعة."

هزَّ الرئيس رأسه بتقدير لخالد، مبتسمًا له، وقال: "شكرًا لك، أيها الشجاع."

لكن نفس شعرت بغيظ في قلبها من عدم اعتراف ريفاز بدورها في الدفاع.

عاد الجميع إلى المنزل، حيث اجتمعوا حول مائدة الغذاء، وكانت قصصهم تتقاطع كخيوط في نسيج واحد من التجارب والمشاعر. لكن عندما بدا خالد يتحدث عن توعد الشابين، ارتعبت نشوة ومنعت خالد ونفس من الخروج.

اعترضت نفس على قرار والدتها، لكن والدها أيد القرار، قائلًا: "لم نأتِ للمشاكل، ولنا هدف واحد في هذه القبيلة، وعند الانتهاء منه سنغادر على الفور."

دخلت نفس غرفتها، والحزن يثقل كاهلها بسبب قرارِ والديها. تبعها والدها وجلس بجانبها على الأريكة، وقال موبخًا لها: "أيدت قرار والدتك لأنني أريدك أن تنتبهي لتصرفاتك المتهورة وغير المسؤولة. لقد غضبت كثيرًا حينما علمت أنك كنتِ تريدين

الذهاب إلى النهر وحدك، وبالكاد تمالكتَ نفسي حتى لا أنقص من قيمتك أمام الجميع."

غضبت نفس، وانفجرت قائلة: "هل أخبرك بذلك خالد؟ يا له من واشٍ! لما تغضب، يا أبي؟ ألا تعلم أنني أستطيع الدفاع عن نفسي؟ ألم يخبرك ذلك الواشي كيف دافعت عن الفتاة وضربت الفتى بشجاعة؟"

رد والدها بصوت هادئ: "بلى، أخبرني، وهذا ما أرعبني، خاصة توعدهما بالانتقام منكما." ثم أضاف: "ابنتي، إننا في بلد ليس بلدنا، ولا يوجد من يحمينا أو يدافع عنا. لا أريدك أن تكرري ما فعلتيه. أريدك أن تكوني فتاة واعية ومتزنة، تحسنين التصرف."

أومأت نفس برأسها، وقامت لتقبل رأس والدها اعتذارًا، بينما كان قلبها يمتلئ بغضب متقد تجاه خالد.

الجـــزء الثـــالث

في عمق الليل، حينما انزوت الأرجاء في ظلام دامس تحت زخات المطر المتساقط، كان خليل يشعر بحركات غريبة حول المنزل. تدفقت الأفكار كالأمواج العاتية في عقله، تتلاطم بذكريات ذلك التهديد المروع الذي أطلقه الشابان لخالد ونفسه، مما زاد من حدة القلق في صدره. شعر بأطرافه تتجمد، ورعشة تسري في جسده، بينما كانت أسنانه تصطك في قلق مفرط، وعبر جبينه المتعرق كانت قطرات العرق تتساقط كزخات المطر، توازي في قسوتها الرعب الذي يكتنفه.

لم يستطع السيطرة على نفسه، فأخذ الوسادة ورماها نحو خالد، ليوقظه من غفوته ليشاركه هذا الكابوس.

استفاق خالد من سباته، جاذبًا أنفاسه في ذهول، ورأى خليل الذي أشار له بيده، مشدودًا نحو مكانه، عينيه تتسعان في ظلام الغرفة كعيني غزال يشعر بالخطر. اقترب خالد منه، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الاستفهام، وسأله بصوت خافت، كمن يتحدث في خلوة سرية: "ما الأمر؟" رد خليل، وصوته يرتجف نحيوط

رقيقة من الصوف، بينما كانت ملامح وجهه تعكس قلقًا عميقًا: "شعرت بحركات غريبة حول المنزل."

أرهف خالد سمعه، محاولًا أن يتجاوز حاجز الخوف الذي طغى على كلمات خليل، لكن الصمت كان يثقل الأجواء. حاول أن يطمئنه، لكن صوته جاء خافتًا، كأنه يخشى أن يوقظ شيئًا من الظلام: "إنك تتوهم، لا يوجد شيء."

ومع ذلك، كانت عينا خليل تتجولان في أرجاء الغرفة، تبحثان عن أي علامة تدل على الخطر.

في تلك الأثناء، رأت غصون ظلًا يتحرك عند النافذة، فاقشعر بدنها وسرت في أوصالها رعشة من الخوف والهلع. هزت نفس بقوة، وقالت بلهجة متقطعة: "نفس! استيقظي، رأيت ظلًا عند النافذة."

تذكرت نفس توعد الشابين، فشعرت بقلق يتسلل إلى قلبها. قامت بخطوات بطيئة نحو النافذة، وفتحتها بحذر، لكن لم تجد شيئًا. عادت إلى مكانها، محاولة أن تخفي قلقها، وقالت مطمئنة لغصون: "لا يوجد شيء، نامي، إنك تتوهمين."

بعد لحظات، قطع صراخ السيدة نشوة سكون الليل كصوت رعد مفاجئ. اندفع الجميع مهرولين إلى غرفتها، بينما استيقظ أحمد على صراخها، مرعوبًا. سألها بقلق، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الخوف: "ما بك؟"

أجابت بصوت يرتجف، يختلط فيه الخوف والهلع، بينما كانت يديها ترتعشان: "رأيت أحدًا يحاول فتح النافذة، وعندما صرخت، هرب."

خرج أحمد وخالد مطمئنين، وجابا أرجاء المنزل، لكنهما لم يجدا شيئًا. وفجأة، سمعا صراخ غصون، فركضا عائدين إلى المنزل، حيث أخبرت الجميع أنها رأت شيئًا يتحرك في المطبخ، مما زاد من حدة التوتر والقلق الذي كان يملأ الأجواء.

فجأة، انطفأت الأنوار، ليغمر الظلام الدامس المكان وكأنما ألقى سحره الأسود على الجميع. تأكد الجميع، بقلوبهم النابضة بالقلق، من وجود كائن آخر في المنزل، مؤكدين لأنفسهم أن ما يعانونه ليس مجرد أوهام أو خيالات.

سمع الجميع صوت حركة أقدام خفيفة، أمسكت نشوة بذراع زوجها، رفع السيد أحمد أصبعه محذراً وقال: "هدوء، أنصتوا."

وجاء الصوت ثانية، همس خالد: "هذا الصوت صادر من المطبخ." زحفوا خلسة متوجهين نحو المطبخ، وكانت العصي في أيديهم كأدوات للقتال في مواجهة المجهول. وتوقفوا ثانية خارج باب المطبخ، كان داخل المطبخ صوت وقع أقدام شخص يمشي بحذر، وصوت خرير ماء خافت. فتح خالد الباب بقوة مندفعا للداخل وتبعه الجميع، ومع ذلك، لم يجدوا شيئًا سوى صدى قلقهم الذي يملأ الأرجاء، وكأنما كان الليل يضحك في وجههم، مستمتعا برعبهم. تلمست غصون بيدها المرتعشة مصباح هاتفها، وأشعلته، ولاحظ الجميع أن النافذة مفتوحة.

توجه الجميع نحو مكان المولد، آملين في كشف سر انطفائه المفاجئ. لكن صرخات غصون، التي زادت من حدة التوتر، اخترقت السكون نكنجر: "أشعر بشيء متشبث بقدمي!" ولم تكد تنتهي من جملتها، حتى التفتت الأنظار نحو ما كان يتشبث بها، ليكتشفوا أنه قرد صغير، يتأرجح ببراءة.

اندلعت ضحكات الجميع، رغم القلق الذي كان يعتصر قلوبهم، وكأنما أطلقوا سراح ضغوطهم في تلك اللحظة.

قام خالد بخفة، وأمسك بالقرد، مخرجًا إياه من المنزل، ليعود من حيث أتى، تاركًا خلفه ذكريات تلك اللحظة الغريبة.

بينما كانت نشوة تتفقد الجميع، نظرت حولها قائلةً: "الكل موجود، لكن أين خليل؟" انطلقت الأعين تبحث عنه في كل ركن من أركان المنزل، حتى وُجد مختبئًا تحت السرير، يرتجف كالعصفور الخائف. اعتذر بخجل، قائلًا: "كنت أبحث عن مصدر الأصوات." فرد خالد، وهو يمزح بسخرية، بينما ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه: "وفي كل هذا الوقت، هل وجدت ما كنت تبحث عنه؟"

غمر الخجل خليل، مما أثار ضحكات الجميع، وترددت أصداء الضحكات في أرجاء البيت، كألحان تنسجم مع ذكريات تلك الليلة المرعبة.

وبعد ليلة مليئة بالرهبة، وذكريات تتأرجح بين الضحك والقلق، تلاشت الأنفاس، وبدأ الجميع يغفو تحت غطاء من الألفة، محتفظين بتلك اللحظات في قلوبهم، لتظل تذكرهم دائمًا بقوة الروابط التي تجمعهم في خضم الحياة.

ـالفصل السادسـ

" إحياء نفس لأخيها خليل"

الـجزء الأول

وسط هدوءٍ ساحرٍ، تزينهُ زقزقة العصافير العذبة، وحفيف أوراق الأشجار التي تداعبها برفق نسمات الهواء الباردة، وأشعة الشمس الذهبية المتسللة برقة من بين ثنايا الأغصان، المتناثرة نكيوط حريرية على أرض الشرفة.

كان السيد أحمد يجلس على مقعده الخشبي، أمام طاولته الأنيقة. يحتسي كوب قهوته الساخن، وعيناه تتنقلان بين سطور تدويناته المتعلقة برسالته التي تتجلى على شاشة الحاسوب المتوهجة أمامه. في هذا المشهد الخلاب، كان أحمد يستمتع بكل لحظة،غارقًا في عالمه الخاص، حيث تتناغم أفكاره مع أصوات الطبيعة المحيطة به.

لكن فجأة، استحضرت ذاكرته صورة ابنه خليل، لحظة اختبائه تحت السرير، هربًا من عالمٍ يبدو له مخيفًا. أغلق جهازه بحركة متثاقلة، تنهد بألمٍ مستبد، وأغمض عينيه تاركًا نفسه يغوص في أمواج التفكير العميقة، باحثًا عن سبيلٍ لتخليص خليل من براثن الخوف المتجذرة التي تحيط به كعنكبوتٍ زاحفٍ، محاصرًا إياه في شبكةٍ من الرعب والقلق.

تسارعت الأفكار في عقله كعواصفٍ هوجاء، متدافعةً كأنها تشتبك في صراعٍ وجودي مع مشاعر الضعف والعجز. كيف له أن يحرر فلذة كبده من هذه الأصفاد النفسية التي تكبل روحه؟ كيف يواجه ذلك العالم الذي يخيفه ويعطله عن استكشاف سبل الحياة المشرقة؟

ثم، في لحظة من الوحي، تذكّر ابنته نَفَس، التي كانت تمثل شعاع الأمل الذي يضيء ظلمات قلبه.

انتظر استيقاظها بصبر يكاد أن ينفذ، وعيناه ترمقان كل الوقت عقارب الساعة التي كانت تسير ببطء شديد، كأنها تدرك تمامًا عمق اللحظة التي يعيشها.

وأخيرًا، جاء صوت منبه غصون ليوقظ نَفَس من عالم الأحلام. استيقظت نَفَس ببطء، عائدةً لتستلقي كما تفعل القطط الكسلانة، تمد جسدها في محاولة لتأجيل مواجهة اليوم.

لكن سرعان ما انبعثت الروح فيها عندما خرجت غصون من الغرفة، لتجد عمها بلهفة يسألها:

- "هل لا تزال نَفَس نائمة؟"

أجابته بسرعة، مع ابتسامة خفيفة على وجهها:

- "لا، إنها مستيقظة."

في تلك اللحظة، ناداها والدها بصوت يحمل نغمة غامضة، مما جعل قلبها ينبض بسرعة.

نهضت مسرعة باتجاهه، تفرك عينيها كمن يحاول طرد آثار النوم، قالت بقلق:

- "نعم، أبي؟ هل هناك أمر ما؟"

نظر إليها والدها بنظرة مليئة بالجدية، مما جعل ملامحها تتوتر، قال بصوت عميق:

- "أتبعيني إلى الشرفة."

تبعت والدها إلى الشرفة، وبداخلها تساؤلات ملحة تغلي، وعندما وصلت إلى الشرفة، ابتلعت ريقها بصعوبة، ثم قالت بتردد، كأن الكلمات تتعثر في حنجرتها:

- "تحدث يا أبي."

نظر إليها والدها بحزن عميق، ودمعة مقهورة فرت من عينيه، ثم قال بصوت مفعم بالأسى:

- "أعتذر، ابنتي، على إزعاجك.لم أستطع الانتظار، فقد زاد وجيب قلبي، ولم أجد غيرك أستطيع التحدث إليه."

وأضاف بصوت مكسور وبلهجة تحمل ثقل الألم:

- "أبنتي، إنني أتألم من أجل أخيك. يؤلمني قلبي كلما تذكرت اختبائه تحت السرير. أريدك أن تكوني إلى جانبه، لتساعديه في التخلص من مخاوفه، ليصبح شابًا قويًا لا يهاب شيئًا."

تنفست "نَفَس" بعمق، بعد أن أدركت أن الموضوع لا يخصها مباشرة. احتضنت والدها بحنان، قبّلته برقة، ثم جلست على

الكرسي المجاور له، وقالت:

- "وأنا كذلك، لقد ضايقني تصرفه ليلة البارحة، وخجلت من سخرية خالد منه. لكن، كيف يمكنني مساعدته؟"

أجابها والدها بحزم، كأنما يزرع الأمل في قلبها:

- "هذا يعتمد على ذكائك وقدراتك."

فكرت للحظة، ثم قالت بعزم:

- "أريد يومًا لأفكر في حل لهذه المشكلة."

كانت دمعة والدها قد تركت جرحًا عميقًا في قلبها، مما دفعها إلى اتخاذ قرار حازم لفعل كل ما بوسعها لمساعدة خليل. قضت يومها تفكر في كل السبل الممكنة، حتى جاء الصباح بعد ليلة طويلة من التفكير، حيث بدأت تتشكل في ذاكرتها أفكار جديدةً.

بعد تناول الإفطار، جلست نَفَس على حافة المقعد، وطلبت من خليل مساعدتها في تمرين المبارزة، مدعيةً أنها ستشارك في مسابقة عند عودتهم إلى لبنان.

تفاجأ خليل وسألها، مرفوعًا حاجبيه في استغراب:

- "أول مرة تطلبين مني ذلك!"

أشاحت نَفَس بوجهها جانبًا، وقالت بصوتٍ مفعم بالاستياء:

- "كنت أتدرب مع خالد، لكنني خاصمته. بسبب وشايته، أنا الآن مسجونة في المنزل بسببه."

رد خليل بهدوء، مع نظرة تعاطف في عينيه:

- "أنتِ تظلمينه، أمي هي من أخبرت أبي، وليس خالد. هل نسيتِ أمر الرسالة؟"

ضربت نَفَس جبينها بيدها، ثم قالت بتنهيدة:

- "لقد نسيت أمر الرسالة." ثم أضافت، وقد بدا على وجهها ملامح العزيمة:

- "دعنا من هذا الحديث الآن، هل ستساعدني أم لا؟"

وافق خليل على الفور، فقد كان يحبها حبًا جمًا، ولم يكن ليرفض لها طلبًا.

ارتدى كل من نفس وخليل ملابس المبارزة، وخرجا للمبارزة، تحت ظل شجرة الصفصاف ذات المنظر الأنيق والفروع الطويلة

المتدلية.

كانت الأجواء مفعمة بالحيوية، حيث تراقصت أشعة الشمس بين الأوراق الخضراء، وتداخلت الأضواء والظلال في لوحة طبيعية ساحرة.

بدأت نَفَس بتعليمه قوانين المبارزة، وعيونها تتلألأ بالحماس. بينما كانت تحاول أن تجعله يجاريها في تلك اللعبة المثيرة، لكن خليل فاجأها بمعرفته لتلك القوانين، مما جعلها تنذهل من تمكنه ومهارته، حتى كاد في لحظة أن يغلبها.

قالت بدهشة، مع اتساع عينيها:

"من أين تعلمت كل هذا؟"

أجاب بفخر، وهو يرفع رأسه قليلًا:

"من النادي الرياضي."

سألت نفس بفضول، مع انحناءة خفيفة في حاجبيها:

"ولماذا أخفيت عنا ذلك؟ وهل تعلمت المبارزة بدافع الهواية، أم هناك سبب آخر؟"

توقف خليل عن المبارزة، وكان واضحًا عليه التوتر. وما هي إلا لحظات حتى ألقى بسيفه، ونزع القناع عن وجهه ورماه أرضًا. تقلصت ملامح وجهه، وكأن سحابة من الغم قد غطت على سعادته. كانت عيناه حمراوتان، وكأنها تنطق بصراخ يصم الأذن، وكان صدره يصعد وينزل بسرعة، كأنما يحاول أن يطرد من صدره ضغوطًا لا تحتمل.

كان يزفر ويشد على شعره بكل قوته للخلف، ويضغط على أسنانه، مما جعل وجهه يبدو مرعبًا، كأنما اندلعت عواصف من المشاعر المتضاربة في داخله. ثم، دون أن ينطق بكلمة، دخل غرفته راكضًا، تاركًا خلفه الجو المتوتر الذي كان قد اجتاح المكان.

تجمدت "نَفَس" في مكانها، تتأمل ما حدث، وقلق يعتري قلبها. كانت تتساءل في أعماقها: "ماذا حدث له؟ لماذا يبدو بهذا الشكل؟" شعرت بأن هناك شيئًا عميقًا يختبئ وراء تلك العواطف المتلاطمة، وقررت أنها بحاجة إلى فهم ما يجري في ذهن أخيها.

الجـزء الثـــاني

ركضت نفس بخطوات مسرعة نحو غرفة خليل، حيث وجدته منهارًا على سريره ككائن ضائع في بحر من الألم. صرخت بقلق: "ما الذي جرى لك، أخي؟" لكن خليل لم يكن لديه كلمات ليقولها. فقط زفرات متقطعة كانت تتسلل من بين شفتيه، تعكس شلالًا من الضعف والخوف، بينما كانت ملامح الفزع والارتباك تهيمن على وجهه.

تملكتها موجة من الخوف. فاندفعت نحو غرفة والدها، وجهها شاحب، والدموع تبرق في عينيها.

"أبي، ماذا يحدث مع خليل؟" تساءلت بصوت مبحوح، وكأن كلماتها تخرج بصعوبة من أعماق قلبها الموجع.
رد والدها بحزن عميق، وصوته يحمل عبئًا لا يطاق: "إنه متأثر بحادثة قتل رفيق طفولته، التي لا يزال الزمن يُلصقها في ذاكرته كجرح نازف.
ثم أضاف، عندما كان خليل في العاشرة من عمره، شهد جريمة قتل صديقه المقرب أمام عينيه، طعناً بالسكين على يد زوج والدته. ومنذ ذلك اليوم، يعاني خليل."

تجمدت ملامح نفس، وارتسمت على وجهها صدمة عميقة. أدركت أن المآسي التي يعيشها أخيها ليست مجرد ذكريات، بل كابوس يرافقه في كل لحظة من حياته.

جلست نفس على حافة سرير والدها، تتأمل في الفوضى العاطفية التي تعصف بأخيها. ثم قالت، وهي تكبح دموعها التي كادت تنفجر: "ياله من متوحش! ولماذا لم تعرضوا خليل على طبيب نفسي؟"

رد والدها بصوت حزين، كأن كل كلمة تنسل من فمه كانت تحمل معها أثقالٍ السنين. "قمنا بعرضه على أكثر من طبيب، لكنه كان يبقى صامتًا، ولم يساعد الأطباء في علاجه. مما اضطر أحد الأطباء إلى وصف بعض الأدوية لتهدئة أعصابه فقط. وعندما صار بالغًا، كان يشعر بالخجل من نفسه، وبدأ يأخذ دورات تدريبية في المبارزة والمصارعة سرًا، حتى يتخلص من الخوف الذي يقيده، لكنه لم يستطع التغلب على عقدته وتوقف."

شعرت نفس بوطأة الندم تتسلل إلى قلبها، وهي تتذكر سخريتها من أخيها طوال تلك السنوات، وتنمرها عليه، واستهزائها به. كان كأن حملًا ثقيلًا قد وقع على كاهلها، وبدأت تلوم والديها على إخفائهم معاناة أخيها منذ طفولته، وكأنهم كانوا يخفون عنها جزءًا من حياته.

بعد أن أدركت نفس عمق عقدة أخيها، زاد إصرارها على مساعدته. نهضت من مكانها، وعبرت الغرفة بخطوات ثابتة، وعندما وصلت إلى غرفته، احتضنته بلطف، وابتسمت له ابتسامة مليئة بالأمل. "لقد أخبرني أبي بعقدتك يا أخي. هل تسمح لي بمساعدتك لتجاوزها؟"

رد خليل بصوتٍ يختلج بالألم، وكأن كل كلمة تنبثق من قلبٍ مكسور: "أختي، لقد حاولت مرارًا أن أتخلص من عقدتي، ولكنني لم أستطع. في ثنايا ذاكرتي، تتجلى صور مؤلمة لا تفارقني، نكيوط من العذاب تخيط تفاصيل حياتي."

توقف لحظة، وكأن الكلمات تتصاعد من أعماق جروحه، تنساب برفق، لكنها تحمل حزنًا عميقًا. ثم تابع ببطء، مسترجعًا ذكرياته المؤلمة: "تتجسد في مخيلتي صورة صديقي، وهو يصرخ في لحظة رعب، بينما السكين تغرز في جسده، والدماء تنهمر كالنهر الجارف. هذا المشهد يتكرر في ذهني ككابوسٍ لا ينتهي، يطاردني في كل زاوية من زوايا حياتي، ويجعلني أعيش في حالة من الرعب المستمر."

توقف للحظة، وكأن الكلمات تتردد في صدره، ثم أضاف بنبرة متقطعة تنبض بالمعاناة: "تتردد سخرية وضحكات الآخرين بسبب خوفي، في أذني كصدى مؤلم. كل ضحكة تخترق قلبي كخنجر مغموس في جرح عميق. أشعر وكأنني عارٍ أمام أعينهم. كل نظرة، كل كلمة ساخرة، تزيد من شعوري بالضعف، كأنني أرتدي درعًا من الخوف لا أستطيع التخلص منه."

تجمدت ملامحه، وكأن الزمن قد توقف، بينما استمر في حديثه: "أريد أن أصرخ، أن أخرج كل ما في داخلي، لكن صوتي يختنق في حلقي، وكأن الكلمات تحبسني في زنزانة من الصمت. أريد أن أكون حراً، أن أعيش دون خوف، لكن تلك الذكريات المؤلمة تأبى أن تتركني، كأشباح تلاحقني في كل زاوية."

ثم أردف بصوت خافت، كأن كل كلمة تخرج منه كانت تتطلب جهدًا كبيرًا: "أشعر أن قلة الثقة بالنفس تُقيّدني،والضعف يلتهمني،والحزن يرافقني كظلٍ لا يفارقني. والخوف يزرع في قلبي الشوك، واللوم يعصف بي."

كان صوته يتلاشى، بينما تملأ ملامحه اليائسة الفراغ حوله. "أشعر وكأنني أسير في متاهة، لا أرى مخرجًا، فقط جدران من الخوف تحاصرني."

تأثرت "نفس" بكلمات أخيها، وكأن كل حرف كان يلامس أوتار قلبها. ورأت في عينيه عمق المعاناة، وكأن كل كلمة ينطق بها كانت تعبرٍ عن جروح لا تندمل. أدركت أن الطريق إلى الشفاء ليس سهلًا لكنها كانت مصممة على أن تكون بجانبه، لتساعده في مواجهة تلك الأشباح التي تلاحقه، ولتضيء له درب الأمل وسط ظلمات اليأس.

مسحت دموعها بسرعة، محاولةً استعادة قوتها، ثم قاطعت حديثه في محاولة لإخراجه من كآبته: "لقد أبهرني اليوم مهارتك بالمبارزة، ما رأيك أن تعود لمبارزتي؟"

لكن خليل، الذي كان يبدو كمن يجرّ أعباء العالم على كاهله، رفض بعناد.

ارتسمت على وجه نفس ابتسامة ساخرة: "لا تريد مبارزتي، خفت أن أتغلب عليك، خفت من أن أسحقك، خفت من الهزيمة."

فكانت ضحكتها كشرارة أشعلت غضبه، وافق خليل على إكمال المبارزة، لكن التوتر كان واضحًا في عينيه وحركاته المترددة، التي أصبحت بطيئة وثقيلة، وكأن كل خطوة تتطلب جهدًا مضاعفًا.

بينما كانت نفس تستمر في استفزازه، سعياً لإيقاظ الروح النائمة في داخله، بينما كان يقاوم مشاعره المتضاربة. ثم، في لحظة من الإرهاق، توقف وخلع القناع، كان وجهه يتصبب عرقًا، وعلامات الإنهاك بادية على جبينه. طلب منها أن يكملوا التدريب في اليوم التالي، بصوت خافت يرتعش من الضعف.

مرت الأسابيع، ونفس تكرس وقتها لتدريبه وتعليمه الاعتماد على النفس بطريقتها الخاصة. كانت تراقب تغيرًا ملحوظًا عليه؛ فقد أصبح قويًا، وزالت العقدة التي كانت تقيده، وبدأت ملامح وجهه تتجدد، وتكتسب إشراقة جديدة.

فرح أحمد بنَشْوَة التغير الذي طرأ على خليل، لكنه شعر بالندم على إهماله له خلال الفترة الماضية بسبب مشاغل الحياة. أدرك أن الدعم العاطفي والتوجيه السليم يمكن أن يغيرا مسار حياة الإنسان، وأنه ينبغي عليه أن يكون أكثر انتباهًا لاحتياجات أبنائه.

الفصل السابع

"رحلة أحمد إلى مراعي الأبقار"

الجزء الأول

بعد مرور شهرين ونصف من وجود عائلة أحمد بين قبائل السورما، قرر أحمد الانضمام إلى شباب القبيلة في رحلة مثيرة إلى مراعي الأبقار، حيث كانت الأجواء مفعمة بالحيوية والنشاط. وعندما وصلوا إلى المراعي، انبهر أحمد برؤية العدد الهائل من الأبقار التي كانت تتجول بحرية.

اقترب أحمد من الشاب الذي كان بجانبه، وقد بدت عليه علامات الفضول، فسأله بلهجة ودودة: "لقد لاحظت وجود عدد كبير من الأبقار هنا. ماذا تفعلون بها؟ هل تقومون بتربيتها للتجارة أم لأغراض أخرى؟" أجاب الشاب بفخر واعتزاز: "كلا، نحن لا نبيع أبقارنا. فهي تشكل جزءًا لا يتجزأ من هويتنا وثقافتنا، وتمثل تراثًا عريقًا."استفسر أحمد باستغراب: "كيف تستفيدون منها إذًا؟" رد الشاب بشغف: "نستخرج منها الحليب والدم. بالإضافة إلى ذلك، نستخدم بعضها مهورًا للنساء. كل بقرة تحمل قصة فريدة، وكل مهر يحمل تاريخًا يمتد عبر الأجيال."سأل أحمد الشاب بفضول: "كم كان مهر زوجتك؟" ابتسم الشاب بفخر، وهو يتذكر تلك اللحظات المهمة في

حياته، ورد قائلًا: "زوجتي الأولى كان مهرها أربعين بقرة، أما زوجتي الجديدة فكان مهرها ستون بقرة. إن الزواج من نساء متعددات يتطلب تربية العديد من الأبقار. إنها مسؤولية جسيمة، لكنها شرف عظيم."ثم نظر أحمد إلى الشاب بجدية وسأله: "وإذا مرضت الأبقار، كيف تعالجونها؟" أجاب الشاب بحكمة: "نقوم بدهن أجسادها بخليط من روثها والرماد. إنها تقنية قديمة، لكنها أثبتت فعاليتها عبر الزمن."استغرب أحمد، وقال: "وهل تتعافى الأبقار بذلك؟" أجاب الشاب بثقة راسخة: "نعم، نؤمن بأن الطبيعة تمتلك القدرة على شفاء كل شيء."بعد شرب الشباب للدم، قاموا بتجريد أنفسهم من ملابسهم ودهنوا أجسادهم بروث الأبقار، معتقدين أن لهذه العادة فوائد صحية. شعر أحمد بالاشمئزاز، لكنه أدرك أن هذه العادات تعكس ثقافة عريقة متجذرة في عمق تاريخهم.ثم بدأوا بالغناء والرقص التقليدي الخاص بالرعي، حيث كانوا يصدحون بأغانيهم التقليدية، بينما كانت أقدامهم تتراقص بخفة على أنغام الغناء. كانت أصواتهم تتردد في الأفق، كأنها تنقل روح الأرض وعبقها إلى كل زاوية.

ثم انطلقوا مع أبقارهم للرعي، وكانت الأجواء تنبض بالحياة والفرح، حيث تمازجت ضحكاتهم مع همسات الطبيعة، في تناغم ساحر يعبّر عن روح الجماعة.مع غروب الشمس، عاد أحمد إلى منزله. لكن، في طريق عودته، باغتته أصوات بكاء تتسلل من أحد الأكواخ. اقترب بحذر ليكتشف مصدر الصوت، فوجد امرأة كبيرة في السن تجلس بجوار الكوخ.سألها أحمد بقلق: "ماذا يحدث؟ لماذا

تبكي الفتاة؟" أجابت بصوت خافت، وكأنها تخشى أن تحمل كلماتها إلى العالم الخارجي: "إنها تجري عملية تجريح على جسدها لترسم أشكالًا كنوع من الزينة."تملكت الدهشة أحمد، فسألها: "ولماذا يتم الاحتفاظ بهذا الأمر سرًا؟" أجابت بصوت يعتريه الخوف: "لأن الحكومة قد منعت هذه الممارسات."هز أحمد رأسه بتعجب، وقال: "كيف تهلكن أنفسكن من أجل الزينة؟" في تلك اللحظة، وجد نفسه في نفخ تساؤلات عميقة، تتراقص حول حدود ثقافات الشعوب، وكيف تتداخل مع القيم والأعراف.

الجـزء الثاني

دخل أحمد منزله، وجلس على الأريكة حيث اجتمعت العائلة حوله بشغف لتروي ما رآه وما سمعه في مراعي الأبقار. لكن نظره سرعان ما وقع على الغياب الواضح لابنته نفس، فشعر بقلق عميق وكأن قلبه قد انقبض. سأل بلهفة: "أين نفس؟"

ردت غصون، بنبرة تحمل قلقًا: "إنها في الغرفة، مستلقية على السرير، وكأنها تحمل هموم العالم على كاهلها."

استفسر أحمد بقلق: "ما بها؟"

أجابت "نشوة": "لقد أمضت اليوم على هذا الحال. تفضل الانعزال، وكأن شيئًا يثقل روحها."

لم يستطع أحمد تجاهل قلقه، فأوصى غصون بالذهاب لاستدعائها لتسهر معهم. ذهبت غصون وأحضرتها، وبدأ أحمد بسرد تفاصيل رحلته، وعينيه تراقبان نفس باهتمام. كان حديثه يأسر الجميع، لكن نفس كانت في عالم آخر، تستمع بصمت وكأنها تنأى بنفسها عن واقع مثقل بالأفكار.

لاحظ والدها هذا السكون الغريب، وبدت عليه ملامح القلق. سألها بصوت محمل بالحب والاهتمام: "حبيبتي، هل هناك شيء يؤرقك؟"

أجابت بنبرة خافتة: "لا، لا شيء." لكن كان في عينيها بريق يحمل قصة لم ترو بعد.

بعدما دخل أحمد غرفته، تملكه القلق حول سبب هذا التغير المفاجئ في نفس. تحدث مع زوجته نشوة حول ذلك.

نظرت إليه نشوة وقالت: "بعد أن أنهت اليوم أعمالها المنزلية، دخلت غرفتها وجلست على جهازها الحاسوب، ثم غفت دون أن تدرك يبدو أن هناك ما يؤرقها."

قال والدها بقلق: "هل تظنين أن ذلك بسبب قرار منعها من الخروج؟"

أجابت نشوة: "لقد سمحت لها بالخروج، لكنها رفضت. ذهبت في الصباح مع غصون في جولة مع نساء القبيلة، بينما اختارت هي البقاء في المنزل." استغرب الأب من قرارها، وكأن شيئًا غير مألوف يعتري ابنته، وكأنها تتراجع إلى داخل قوقعتها.

في خضم حديثهم الهادئ، ارتفعت دقات خفيفة على الباب، تلاها صوت خليل الذي استأذن للدخول. أذن له والده، وعندما دخل، اتسمت عينيه ببريق من الحماسة. قال: "أبي، أريد أن أستأذنك أنا وخالد لنشارك الشباب غدًا في طقوس الضرب بالعصي. فهم يمارسون هذا الطقس سنويًا بعد موسم المطر."

كأنما انفتحت أبواب السماء أمام أحمد، فطفرت دموع الفرح من عينيه، وشعور عارم من السعادة اجتاحت كيانه. فهو لم يكن يصدق أنه يأتي يوم ويطلب خليل ذلك.

لكن نشوة، الأم القلقة، اعترضت بشدة، خائفة عليهما. قالت برعب: "سمعت من نساء القبيلة أن الشباب يصبحون أعداء في هذا الطقس، وقد يقتل أحدهم الآخر أو يتسبب في إصابته بإصابات بليغة."

على الرغم من تحذيرات نشوة المقلقة، قرر السيد أحمد السماح لهما بالمشاركة، موجهًا إليهما نصيحة بأن يكونا أكثر حذرًا. لكن الغضب تسلل إلى قلب نشوة من موقف زوجها. رد عليها أحمد بهدوء، محاولًا تهدئة مخاوفها: "يجب أن تكوني سعيدة. لم أكن لأصدق أن يأتي خليل ليطلب مني ذلك. أشعر بسعادة غامرة، لأنني تأكدت تمامًا من زوال عقدة الخوف لديه."

ـالفصل الثامنـ

" العودة إلى لبنان"

الجـزء الأول

مع انقضاء ثلاثة أشهر، كان أحمد قد استكمل جميع المعلومات المطلوبة لرسالته. وبدت له اللحظة قد حانت للعودة إلى موطنه لبنان. كانت تلك اللحظة تقترب كنسيم ربيعي يحمل معه عبق الذكريات، مما جعل قلبه ينبض بشغف الحنين إلى وطنه لبنان.

أقام الزعيم حفلة وداع كبيرة لعائلة أحمد، اجتمع الأحبة والأصدقاء، حيث كانت الأجواء تنبض بالفرح والحنين. وسط هذه الأجواء الاحتفالية، تألق خليل بصوته العذب، الذي كان كنسيم رقيق يلامس الأرواح. اتجهت نظراته نحو غصون، معبرًا عن مشاعره الدفينة بكلمات الأغنية، بينما كانت غصون تبادله النظرات نفسها، وكأنما يتحدثان بلغة سرية لا يفهمها سواهما.

بينما كان خالد يستمع بشغف إلى الأغنية، كانت كلماتها تلامس قلبه النابض بحب نفس.

ولكن، على الرغم من الأجواء المبهجة، كان هناك شيء من الحزن العميق يلوح في عيني نفس، وكأنها تحمل أعباءً تفوق قدرتها.

عندما انتهت حفلة الوداع، عادت عائلة أحمد إلى المنزل لتحضيرات السفر. لكن خالد لاحظ شيئًا غريبًا في الطريق: تعرج نفس في مشيتها، كأنها تحمل عبئًا خفيًا.

تساءل خالد في نفسه: "ما الذي يحدث لها؟" بدأ القلق يتسلل إلى قلبه كظل، وكأن هناك سرًا عميقًا يختبئ خلف تلك العيون الحزينة.

في الليل، بينما كان الجميع نائمين، ظل خالد مستيقظًا، يسبح مع الأفكار، خواطر كالموج تتوالى عشوائية في خلده المؤرق. قرر الخروج إلى الشرفة، وجلس تحت نافذة نفس، غارقًا في تساؤلات حول سببِ تعرجها وحالتها المتغيرة التي أثارت قلقه. كان يشعر بأن هناك شيئًا غير طبيعي، شيئًا يستدعي الانتباه.

في تلك الأثناء، كانت نفس تعاني من الأرق، إذ انتهى مفعول الدواء الذي كانت تتناوله سرًا، وعادت لتشعر بالألم. فتحت نافذتها، ورفعت كفيها إلى السماء، تناجي الله في صمت، تتوسل إليه أن يخفف عنها أوجاعها. كانت كلمات دعائها تتسرب من بين شفتيها كهمسات خافتة، تحمل في طياتها آمالًا وأحلامًا ضائعة. وعندما كانت تلهج بالدعاء، تساقطت دموعها بغزارة، لتبلل خد خالد الذي كان يجلس تحت نافذتها.

شعر خالد بدموعها تتساقط على خده، وكأنها تحمل إليه آلامها في كل قطرة. لم يستطع تحمل مشهدها المؤلم، فنهض بسرعة، وقلق يعتصر قلبه، "نفس، ماذا بكِ؟ لماذا تبكين؟" سألها بصوت خافت، كأن الكلمات تخشى أن تخرج.

تفاجأت نفس من وجوده، لكن الألم الذي كانت تشعر به كان أكبر من أن تخفيه. أخبرته بما يعتمل في صدرها، والدموع تنهمر من عينيها كالسيل، مما جعل قلبه ينفطر حزنًا. كان مشهدها مؤلمًا، وكأن كل دمعة تسقط كانت تنقل إليه جزءًا من معاناتها.

بلا وعي، انفجرت دموعه أيضًا، متألمًا لألمها، وكأنهما يتشاركان في معركة واحدة. توسلت إليه، وعينيها مليئتين بالخوف والرجاء، وكأنها تبحث عن طوق نجاة في بحر من المعاناة.

"أوعدني أن لا تخبر أحدًا الآن. سأخبرهم أنا بعد مناقشة والدي رسالته!" قالت بصوت خافت، يكاد يختنق من ثقل الكلمات. وعدها بأنه سيحتفظ بسرها، لكن ثقل هذا السر كان يضغط على كاهله، كأنه يحمل جبلًا من الهموم. تجاذبت أنفاسهما في تلك اللحظة، حيث اختلطت مشاعر الخوف والأمل، وكأنهما في عالم خاص بهما، بعيدًا عن كل ما يحيط بهما.

الجـزء الثـاني

قبل بزوغ الفجر، استيقظ الجميع، لكن خالد كان يشعر بثقل في قلبه، وكأن الفرح الذي يحيط بهم لم يكن سوى قناع يخفي الحزن العميق. كان يراقب نفس وهي تضغط على نفسها لتبدو طبيعية، بينما كانت ملامح وجهها تتغير بين الابتسامة المصطنعة والقلق الحقيقي، مما زاد من حيرته: هل يحتفظ بسرها أم يخبر والديها بما تشعر به؟

جاء شقيق السيدة شاشاج في سيارة قديمة تأخذ من السكون أصوات عجلاتها كأنها تهمس بأسرار الماضي.

خرج خالد وخليل، يحملان الأمتعة ببطء، كما لو آن كل قطعة من متاعهم تحمل معها ذكرى، ثم حمّلاها على ظهر السيارة المكشوفة، في مشهدٍ يجسد لحظة وداع عابرة. اجتمع أهل القرية، بوجوههم البسيطة وقلوبهم المليئة بالطيبة، ليودعوا عائلة أحمد التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياتهم اليومية.

كان الوداع مزينًا بالقبلات التي تلامس الوجوه، ولمعت العيون بالدموع، وكأن كل دمعة تحمل في طياتها قصة من الذكريات.

وقفت نفس بين أهل القرية، تحاول أن تحتفظ بآخر تفاصيلهم، تلك الأيادي المتشققة التي تحمل آثار العمل، والوجوه السمراء التي ارتسمت عليها ملامح الطيبة، والأعين التي امتلأت بالدموع الصامتة كبحرٍ هادر.

ثم همست بصوتٍ يكاد يُشبه همس الرياح: "وداعًا لقلوب لم تعرف سوى الصفاء، وداعًا لوجوه نقية كصباح القرية الهادئ، وداعًا لأناس علّموني أن الطيبة أكبر من أي كلمة، وأن المحبة الصادقة لا تموت، بل تعيش في الذكريات."

تلاشت الكلمات في الهواء، لكن صداها ظل يتردد في القلوب، كأنها وعدٌ بأن تبقى تلك الذكريات حية، حتى وإن افترقت الطرق.

ركبت العائلة السيارة، وتراقصت أضواء المصابيح على الطريق كأنها ترسم لوحات من الذكريات، بينما كان أهل القرية يهتفون بعبارات الوداع، تملؤهم مشاعر الحزن والحنين. رفعت نفس يديها تلوّح لهم، وقلبها يعتصره الألم، وقالت بصوت مفعم بالعواطف: "أقسم أنني لن أنساكم، أنتم من علمتموني أن الجمال الحقيقي لا يُرى بالعين بل يحس بالقلب. وداعًا أيها الطيبون، وداعًا يا من غرستم في روحي معنى الحياة البسيطة، البريئة."

بينما كانت السيارة تبتعد شيئًا فشيئًا في ذلك الطريق الطويل، كان النسيم عليلًا، كأنه يحمل رسالة حب من الطبيعة، يحتضن أرواحهم ويرسل إليهم نسائم الوداع. تراقصت أغصان الأشجار، وتغنت الطيور بأنغامها العذبة. لكن في قلب نفس، كانت هناك عواصف من المشاعر المتضاربة، كأنها تعيش في عالمٍ من التناقضات، مما جعل ملامح وجهها تتغير بين الابتسامة والدمعة.

وصلت العائلة إلى مطار جينكا، حيث ودّعوا شقيق السيدة شاشاج، وارتفعت الطائرة نحو السماء، تحملهم إلى أديس أبابا. هناك، كان السيد أربيس وعائلته في استقبالهم، وجوهٌ ترتسم عليها البهجة والترحاب، يعانقونهم وكأنهم جزء من عائلتهم. لم يمر وقت طويل

حتى جاء وقت الرحيل مجددًا، وامتلأت العيون بالدموع،وامتلأت القلوب بالشكر والامتنان، لتقلع الطائرة بهم إلى لبنان.

ـالفصل التاسع

"حان الوقت لمواجهة الحقيقة"

الـجـزء الأوّل

بعد انقضاء أسبوع كامل منذ أن وطأت أقدام عائلة أحمد أرض لبنان، حان الوقت الذي طال انتظاره لمناقشة رسالة الدكتوراة الخاصة بالسيد أحمد. في تلك اللحظة، كانت الأجواء مشحونة بعبق التوتر، وكأن الغلاف الجوي قد تجسد في شحنة كهربائية تلامس الأرواح. كان قلب أحمد ينبض بشكل متسارع، محملًا بأثقال القلق والترقب، بينما كان يتجه نحو قاعة المناقشة. كان محاطًا بشبكة من الأحبة والأصدقاء الذين اجتمعوا حوله ككواكب تدور في فلك نجم، يمدونه بالدعم المعنوي في هذه اللحظة الحاسمة التي قد تحدد مصيره الأكاديمي.

بعد المناقشة، أعلن رئيس اللجنة حصول السيد أحمد على درجة الامتياز مع مرتبة الشرف. انتفض الجميع في قاعة المناقشة وكأنها تعرضت لزلزال من الفرح، وتصاعدت الأصوات لتملأ الفضاء

بتصفيق حار، وكأن القاعة نفسها قد استجمعت أنفاسها لتتنفس فرحة الجماهير في آن واحد. لكن وسط زخم هذا الاحتفال، شعرت نفس بثقل الجبال يضغط على قدميها، وكأن الهموم والأعباء قد تجسدت في عوالم غير مرئية، تسحبها نحو أعماق الأرض، حيث تلاشت كل مظاهر الفرح في دوامة من الخوف والقلق.

تساقطت دموعها من الألم والفرح، ولم تستطع أن تقف في وجه هذا المد العاطفي، بينما كانت أصداء الفرح تعمّ المكان.

سألها خالد، وهو يراقب حالتها بقلق: "لماذا لا تقفين تكريمًا لوالدك؟" أجابت بصوت مختنق: "لا أستطيع." كانت تلك اللحظة مليئة بالتوتر، حيث كان الفرح والحزن يتصارعان في قلبها، كأنهما عاصفتان تتلاطمان في أعماق روحها.

أمالها خالد نحوه ليسندها، بينما أشارت عينا والدها داعيًا إياها للاقتراب لالتقاط صورة تخلد هذه اللحظة. سار خالد إلى جانبها، وفي تلك الأثناء، تساءل والدها بلطف، وهو يغمرها بابتسامة دافئة: "ما سبب الدموع التي تلمع في عينيك، حبيبتي؟"

ابتسمت ابتسامة هشة، وأجابت: "إنها دموع الفرح، يا أبي." ولكن في أعماق روحها، كانت تلك الدموع تحمل قصة أخرى، قصة أعمق

بكثير من مجرد الفرح الظاهر.

عادت العائلة برفقة خالد وغصون إلى المنزل، حيث طلب خالد من نفس أن تفي بوعدها وتخبر والديها بما تحمله من ألم، وإلا سيضطر هو إلى ذلك. أجابته بعينين يكسوهما الحزن: "سأخبرهم غدًا، لا أريد أن أفسد فرحة والدي الليلة."

في تلك الليلة، كانت الأفكار تتزاحم في عقل نفس، احتشدت الدموع في عينيها، كانت تفكر في كيفية إخبار عائلتها، وكيف سيستقبلون الخبر، وما ستكون ردود أفعالهم. مضت ساعات الليل ببطء، وأشرقت الشمس، بدأ قلب نفسٍ بالخفقان، تسارعت ضرباته، وكأن كل لحظة تمر تضيف مزيدًا من الثقل على ما تخفيه، "لكن حان الوقت لإخبار عائلتها بما تشعر به."

في الصباح، دخل خليل إلى غرفتها، يناديها بلطف للانضمام إلى مائدة الإفطار. كانت عيناها مليئتين بالدموع، ويعكس وجهها حزنًا عميقًا. جلس بجانبها، ووجهه يحمل تعاطفًا صادقًا، فقال برفق: "ما بكِ، حبيبتي؟"

احتضنته بشغفٍ، وكأنها تبحث عن ملاذٍ آمن، وانهمرت دموعها بغزارة كأنها نهرٌ من الألم. همست بصوتٍ مكسور: "خليل، لا

أستطيع المشي بسهولة، أرجوك أخبر والديّ."

انقبضٍ قلب خليل، وكأن صخرةً ثقيلة سقطت على صدره، فركض مسرعًا ليخبر والديه. لم تلبث والدته أن جاءت مسرعة، احتضنتها بقوة، وكلماتها تفيض بالعطف: "لا تخافي، سنبذل كل ما بوسعنا لعلاجك، وفي أفضل المستشفيات سواء في لبنان أو خارجها."

أما والدها، فقد وقف مذهولًا، ملامحه تعكس صدمة عميقة، كأن العالم قد تهدم من حوله في لحظة.

ورغم الآلام التي كانت تعصف بها، شعرت نفس براحةٍ غريبة، كأن الثقل الذي حملته طويلًا قد زال أخيرًا. لم تعد وحدها في مواجهة الحقيقة، بل بدأت تتخيل نفسها تتعافى وتعود إلى الحياة، محاطةً بأحبائها، في لحظاتٍ من السعادة التي كانت تتوق إليها.

الجـزء الثـــاني

تقدمت العائلة نحو المستشفى بخطى متثاقلة، وكأن كل خطوة تخطوها تغوص بهم في بحر من الظلام الدامس. كانت نفس تسير بينهم، لكن شعورها كان كمن يجر أقدامه فوق جمرٍ متأجج، يلسعها بألمٍ لا يُحتمل. ومع ذلك، وفي أعماق الألم الذي يستعر في

جسدها، كانت هناك شرارة صغيرة من الأمل، كأن شيئًا يهمس في نفسها بأن الضوء قد يكون في نهاية هذا النفق الطويل المظلم.

عند وصولهم، استقبلهم الطبيب بوجه جادّ، ليبدأ رحلة من الفحوصات والتحاليل، بالإضافة لصورة بالرنين المغناطيسي، كأنما يحاول أن يلتقط أنفاس الحقيقة المتوارية. امتثلت نفس لكل ذلك بهدوء، لكن في داخلها كانت تتصارع مع مشاعر الخوف والقلق. وعندما عادت للمنزل، كانت تشعر بثقل غير مرئي يسحبها، وكأن كل شيء حولها بات أثقل من أن تتحمله روحها.

في تلك الأثناء، كان أحمد وزوجته نشوة يجلسان في غرفة الانتظار، يراقبان عقارب الساعة التي تمشي ببطء مُنهك، وكأن الزمن قد أوقف نفسه ليسخر من قلقهم. كل دقيقة كانت تمرّ كأنها ألف، والانتظار كان يجرفهما نحو قاع من القلق، مُستنزفاً كل قطرة من طاقاتهم المتبقية.

كانت نظراتهم تتبادلان الأمل والخوف، وكأنهما يحاولان إقناع نفسيهما بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

وأخيرًا، ظهرت نتائج التحاليل. استلمها أحمد بنفحة من الأمل المترقب، اتجها إلى غرفة الطبيب، وقلوبهما تكاد تقفز من صدريهما

من شدة الرهبة. وما إن وصلا إلى باب الغرفة، حتى اجتاحتهم برودة غريبة، تسري في أوصالهم كأنما تُبشر بشيء قادم لن يكون بسيطًا.

تحدث الطبيب بصوت هادئ، خافت كهمسات الرياح التي تسبق العاصفة: "ابنتكم تعاني من مرض نادر في العظام..."، ثم توقف للحظة، مُثقلًا الكلمات بعبء الحقيقة القاسية، قبل أن يواصل بصوت يحمل في طياته لوعة الفراق: "وهو غير قابل للعلاج."

في تلك اللحظة، بدا أن العالم قد تهاوى حولهما، وتبخرت كل أحلام المستقبل التي نسجاها معًا، تاركةً وراءها ظلامًا حالكًا من الصدمة والخيبة.

تساقطت نشوة على المقعد، وأغمضت عينيها كأنها تستجدي الخلاص من واقع لا تملك الشجاعة لمواجهته. كانت ملامح وجهها شاحبة، وشفتيها ترتجفان، كأنها تبحث عن كلمات ضاعت في زحام الألم. أما أحمد، فقد شعر بأن صدمة الكلمات قد سلبت منه توازنه، ليبقى برهة عاجزًا عن تصديق ما سمعه، وعيناه تتسعان في ذهول، كأنهما تبحثان عن إجابة في الفضاء الخالي، بينما كان قلبه ينفطر من شدة الوجع.

حاول آن يسآل الطبيب، لكن كل إجابة كانت كطعنة جديدة تزرع الألم في صدره، وكأن الحزن الذي يتدفق عليه أكبر من أن يتحمله. كانت الدموع تتجمع في عينيه، لكنه كان يجاهد للتماسك، وكأن الرجولة تفرض عليه أن يكون قويًا في وجه هذه العاصفة المدمرة.

خرج أحمد من المستشفى، يجر أذيال الخيبة، وأرسل رسالة إلى خليل ليأتي ويأخذهم إلى المنزل. وما إن وصل خليل برفقة خالد، حتى التقت أعينهم بوجوه أحمد ونشوة، حيث كانت تلك النظرة كفيلة بأن تروي لهم الخبر دون الحاجة إلى كلمات. كانت عيونهم مليئة بالأسى، كأنها تعكس عتمة الليل الذي حلّ بهم.

سادت لحظات من الصمت الثقيل، تخللتها شهقات متكسرة ووجوه لا تزال تعاني من صدمة الحقيقة، كأنهم غير قادرين على استيعاب أن المصيبة قد حلت.

طلب أحمد من الجميع أن يخفوا الخبر عن نفس وغصون، ساعيًا لحماية براءتهما من قسوة الواقع الذي يحيط بهم. وعندما عادوا إلى المنزل، سألت نفس والدها ببراءة طفلة عن نتائج الفحوصات، فرد أحمد بصوت متحشرج، محاولًا أن يرسم طمأنينة زائفة: "الطبيب قال إن عندكِ نقصًا في الكالسيوم والفيتامينات، ووصف لك دواءً تتناولينه

كل أربع ساعات." لكن ما إن دخل أحمد غرفته، حتى انهمرت دموعه، كأنها سيل من الألم الذي كان يحاول كتمه.

بعد ذلك، خرج أحمد إلى منزل أخيه زياد، بحثًا عن كتفٍ يخفف عنه وجعه. وعندما عاد، همس لزوجته نشوة وهو ينظر فيً عينيها كأنه يتلمس الأمل: "زياد اقترح أن نسافر بنفس إلى ألمانيا، حيث العلاج المتقدم. وقال إنه سيتكفل بكل شيء."

ابتسمت نشوة، وعاد الأمل ينمو في قلبها، كزهرة تتفتح في صحراء حزنهم، تحمل بين بتلاتها رجاءً أن يجدوا في ألمانيا ما يعيد لهم صحة ابنتهم.

ـالفصل العاشرـ

"عتمة يضيئها مصباح وحيد"

الـجزء الأول

بعد انقضاء أربع ساعات على تناول نفس الدواء، بدأت آثار هذا العلاج تتلاشى تدريجيًا، كأنها خيوط من دخان تتبدد في الهواء. عادت الآلام لتغزو جسدها من جديد، نكيوط ملتهبة من نار تتغلغل في عظامها، لتشعل فيها عذابًا لا يرحم. كانت تتلوى في معاناتها، وكأنها ضحية لعاصفة من الألم لا تنتهي.

في تلك اللحظة، قدمت لها غصون الدواء مرة أخرى، كمن يقدم طوق نجاة في بحر هائج. بعد تناول نفس الجرعة الجديدة، شعرت ببرودة الهدوء تسري في عروقها، لكنه كان هدوءًا زائفًا، إذ كان الألم يترقبها في الأفق، كعاصفة مدمرة تجمع سحبها في سماء حالكة، جاهزة للانقضاض في أي لحظة.

بصوت متقطع، وبنبرة تحمل في طياتها عبء المعاناة، طلبت نفس من غصون أن تمنحها جهازها المحمول، عازمة على الهروب من واقعها المؤلم إلى عوالم الكلمات التي كانت تتدفق من قلبها كأنها نهر متلاطم، يسعى لنسج عالم بديل، بعيدًا عن قسوة مرضها الذي يلاحقها كظلٍ لا يفارقها. كانت الكلمات بالنسبة لها بمثابة طوق نجاة، محاولةً بذلك الهروب من سجن المعاناة الذي حاصرها.

لكن الألم كان دائمًا حاضرًا، ككابوس متجسد يطاردها في كل لحظة، يذكرها بأنها محاصرة في سجنٍ من المعاناة، حيث تتداخل الآلام مع أحلامها، مما يجعل كل محاولة للهروب تبدو كحلم بعيد المنال، يتلاشى كسراب في صحراء قاحلة. كانت تلك اللحظات تمثل صراعًا مريرًا بين الرغبة في التحرر من قيود الألم والواقع القاسي الذي يحيط بها.

ورغم حالة الهلع التي سادت أفراد العائلة، كانوا كأشجار صامدة في وجه العاصفة، متمسكين برعاية نفس وِدعمها في رحلتها المؤلمة. كان عليهم التحلي بالقوة، وكأن العالم بأسره ملقى على كواهلهم، يتطلب منهم أن يكونوا درعًا واقيًا ضد قسوة الواقع. تداخلت الأيادي، وارتسمت على الوجوه تعابير الشجاعة، رغم التوتر الذي كان يتلألأ في أعينهم كنجوم خافتة في سماء حالكة.

لإضفاء جو من الأمل في تلك الليالي الكئيبة، قررت العائلة آن تقيم سهرات ليلية، كجزء من خطة لتغيير حالة نفس النفسية ورفع معنوياتها.

اجتمعت العائلة بعد وجبة العشاء في غرفة نفس، حيث أضاءت الشاشة الصغيرة بألوان الفيلم الكوميدي الذي اختاروه. توزعت الأطباق المليئة بالفشار والمكسرات. كانت ضحكات نفس تتردد في أرجاء الغرفة على المشاهد الطريفة، بينما كان أفراد عائلتها يحاولون جاهدين الابتسام، رغم الألم الذي كان يثقل أرواحهم.

لكن بعد نصف ساعة من بداية السهرة، عاود الألم هجومه على نفس. تجمدت ضحكتها للحظة، وارتسمت على وجهها ملامح الألم. أخذت جرعة أخرى من الدواء، ثم عادت لاستكمال السهرة، مُحاطةً بحب عائلتها الذي كان كدرعٍ يحميها من قسوة الواقع.

عندما أسدل الفيلم ستاره، شعرت نفس بعباءة النعاس تتسلل إليها. غادر الجميع الغرفة، تاركين غصون كحارس لأحلامها، وبدأت نفس تتنقل بين أحلام جميلة، تهرب بها من واقعها المرير.

في الصباح الباكر، دخل السيد أحمد غرفة ابنته. اقترب من نفس ليطمئن عليها، وأخبرها بأنه سيتوجه مع أخيه زياد لحجز تذاكر السفر

لكلتا العائلتين، في رحلة إلى ألمانيا، حيث سيتاح لهم عرض حالتها على طبيب عظام مختص.

فكرة السفر أدخلت نفس في دوامة من الشك والمخاوف، حيث ارتسمت في ذهنها علامات استفهام كثيرة، تتراقص كأشباح في زوايا تفكيرها.

بعد مغادرة والدها، شعرت نفس بحاجة ملحة لمعرفة المزيد عن حالتها. طلبت من غصون أن تحضر لها أوراق التحاليل من خزانة والدها. انطلقت غصون لتنفيذ الطلب، وهي لا تدرك الكثير عن حالة نفس سوى ما أخبرهم به عمها.

عادت غصون حاملة الأوراق، ووضعتها بين يدي نفس التي كانت عازمة على فك رموز النتائج. جلست نفس في زاوية الغرفة، حيث خيم الصمت، وبدأت تتصفح الأوراق بعناية. استخدمت القاموس الطبي على هاتفها، ومع كل كلمة كانت تقرأها، كانت تتكشف أمامها خيوط المرض الذي تعاني منه، ومستوى خطورته.

في تلك اللحظة، أظلمت الدنيا من حولها، وكأنها تسقط في هاوية عميقة، حيث تداخلت مشاعر الخوف والقلق في قلبها. كانت الأفكار تتصارع في عقلها، تتنازع بين الأمل واليأس، وكلما حاولت

آن تتمسك بشعاع من الأمل، كان الخوف ينهش في قلبها كوحش كاسر.

لكن بعد دقائق من الصدمة، تمالكت نفسها. كانت نفس بطبيعتها فتاة قوية وصبورة، لذا قررت أن لا تظهر ضعفها، حتى لا تثير قلق عائلتها. نادت على غصون وطلبت منها أن تعيد الأوراق إلى مكانها، عازمة على مواجهة ما هو قادم بشجاعة وثبات.

عاد والدها وعمها لاحقًا، حاملين أخبارًا جديدة. أعلنوا أن موعد السفر قد حُدد بعد أسبوعين فقط، لكن نفس كانت تشعر بالذعر، وأن الوقت يمر بسرعة البرق، وأنها بحاجة إلى معجزة لتجاوز هذا الامتحان الصعب. كانت الأفكار تتنازع في عقلها، فكلما حاولت أن تتمسك بالأمل، كان الخوف ينهش في قلبها، تاركًا إياها واقفة على حافة الهاوية، تنتظر ما سيأتي.

الجـزء الثـــاني

بعد انقضاء الأسبوع الأول من اكتشاف مرض نفس، بدأت عظامها تفقد استجابتها للعلاج المهدئ. وكأن جسدها قد قرر في خيانة روحها التي تتوق إلى النجاة، كانت الآلام تتصاعد ببطء، لكنها كانت تتجمع في جسدها كغيمة سوداء تتراكم في الأفق، تمهيدًا

لعاصفة لا مفر منها. كل يوم كان يمضي كان يضيف وزناً جديداً على كاهلها المرهق، ويجعل من الألم رفيقًا لا يفارقها، يسكن في كل زاوية من زوايا وجودها.

دفعها هذا العذاب المتصاعد إلى الطبيب، برفقة والديها اللذين كانت وجوههم تحمل مزيجًا من الخوف والرجاء.
عندما دخلوا غرفة الطبيب، كان الهواء مشحونًا بالتوتر. قام الطبيب بفحصها بعمق، أجرى الفحوصات والتحاليل المعتادة، لكن عينيه، اللتين كادت تخفيان مشاعر القلق، كشفتا عن انهيار مقلق في حالتها الصحية. مما أثار حيرته من سرعة ذلك، وقلقه في آن واحد.

هذه المرة، لم يكن أمام الطبيب سوى اللجوء إلى الحل الأخير، قال: "لا خيار آخر أمامنا." صوته ينطق بالجدية. "علينا مضاعفة الجرعة العلاجية. سأصف لها حقنًا مهدئة تُحقن في الوريد كل أربع ساعات. عسى أن توقف هذا الطوفان المتدفق من الألم."

لكن سرعان ما أدرك الجميع أن العلاج نفسه صار عبئًا جديدًا على نفس، وكأنها محاصرة في دوامة لا تنتهي. كانت الحقن تتسرب في عروقها كأنها ماء، قبل أن تمر الأربع ساعات، تاركة إياها في صراع

مرير مع الألم، وكأنها محكوم عليها بأن تعيش في هذا الفاصل الضيق بين الراحة المؤقتة والعذاب المستمر.

إلى جانب ذلك، جاءت الأعراض الجانبية كالموجات العاتية؛ بطء في التنفس، تلعثم في الكلام، وتكاثر الفطريات في فمها، مما زاد من معاناتها. كان اللسان يحترق كلما لامس الطعام أو الشراب، بالكاد كانت قادرة على بلع القليل من الماء والطعام السائل. حتى حبوب الفيتامينات الصغيرة التي أعطيت لها باتت تشكل خطرًا.

في إحدى لحظات الذعر، عُلقت إحدى الحبوب في حلقها، وسدت مجرى الهواء، مما جعلها تعيش لحظة قاسية كاد فيها الموت أن يحل. لكن، بعد صراع مرير، تمكنت من بلع الحبة، وكأن الحياة أعيدت إليها مجددًا، فتنهّدت بعمق، وابتسمت للحياة، قائلة: "الحمد لله"، كررتها كتعويذة تُعيد لها الأمل. ثم نظرت إلى عائلتها، بتلك العيون المليئة بالدموع، وبصوتٍ خافت، مكسور، قالت: "كنت أخشى أن أموت ولن أراكم مجددًا." تلك الكلمات سقطت كخناجر في قلوب عائلتها، ولم يكن أي منهم قادرًا على الكلام. لكنهم رغم الألم العميق، جمعوا شتات أنفسهم، محاولين أن يكونوا دعماً وسندًا لها، بينما هم يغرقون في بحر من الخوف والقلق.

مع بداية الأسبوع الثاني، استفاقت نفس من نومها المضطرب على آلام مبرحة كانت تعصف بكل ذرة في جسدها. كانت ساقاها متصلبتين، كأنما مقيدتان بأغلال ثقيلة غير مرئية، بينما كانت الآلام في يديها تمنعها حتى من لمس أبسط الأشياء. انحنى عمودها الفقري بشكلٍ مخيف، مما جعلها تشعر أن جسدها لم يعد ملكها، بل أصبح عدوًا يتآمر ضدها.

كان كل شيء غريبًا، كل شيء يتحول إلى كابوس. ارتجفت، ليس فقط بسبب المرض، بل من الخوف العميق الذي اجتاحها كعاصفة مفاجئة. كانت ترغب في الصراخ، في تفجير هذا الألم المكبوت، لكنها لم تستطع. كيف لها أن تزعج والديها المنهكين النائمين بجانبها؟ كيف يمكنها أن تخيفهم بشأن صحتها، رفقة بمشاعر أحبابها؟ فضلت أن تكون وحدها في هذا الصراع المرير، تصارع جسدها وروحها، بينما تنهمر دموعها كأنها تعبر عن استسلامها التدريجي لمصير مظلم يلوح في الأفق.

بصوت مرتعش، همست إلى أخيها خليل: "أشعر بالبرد." استجاب لها على الفور، وغطاها بحنان كأنه يحاول أن يحيطها بدفء قلبه.

سأل بقلق، ملامح وجهه مشدودة: "أختي، لماذا تبكين؟" نظرت إليه بعينين تحملان حزنًا عميقًا، وكأنما كانت تعكس كل آلامها، ثم

أجابت بصوت خافت: "آخي، أشعر أن الموت قريب مني، وأن ما أعانيه الآن ما هو إلا سكراته."

اقترب منها خليل، وقبل جبينها، وحاول بصوت مملوء بالأمل أن يطمئنها: "كوني قوية يا نفس، لا تفقدي الأمل. سنسافر إلى ألمانيا قريبًا، وهناك ستجدين الشفاء، بإذن الله. هذه الآلام ستزول قريبًا، صدقيني حبيبتي."

رفعت يدها المرتعشة بقوة، ووضعتها على رأسه، ومررتها على شعره، وقالت بعد تنهيدة طويلة: "أشعر أنني أحارب طواحين الهواء. تتساقط عليّ الآلام كالأمطار، وكأن روحي تهم بالتحرر. وأضافت، "يا أخي، أيامي أصبحت كوابيس، كل شيء حولي يتبدل، حتى صورتي التي كنت أفتخر بها أصبحت غريبة. أين ذهبت تلك الفتاة التي كانت تتمتع بالحياة؟"

ارتبك خليل، وارتعشت كلماته في فمه كأنها طيور تحاول الهروب من قفص. "لا تقولي هذا، يا نفس!" قالها بتوتر، كأنما يحاول إيقاف الزمن. لكن عينيها، اللتين كانتا تلمعان بالحزن، أرسلت له رسالة لا يمكن تجاهلها. "أعيش أيامي الأخيرة، يا خليل." همست، وكأن الكلمات خرجت منها بصعوبة، "جسدي يخذلني، وأصبحت مقيدة

إلى هذا السرير، أحتاج من يحملني من مكان إلى آخر. لا أستطيع أن أعيش حياتي كما كنت أفعل."

كان الألم يتسلل إلى قلب خليل، كلماتها تغرقه في بحر من الخوف والقلق. تجمد للحظة، ثم اقترب منها أكثر، وقبل جبينها برفق، كأنما يريد أن يبعث فيها بعض القوة. همست "نفس" في أذنه بصوت هادئ مستسلماً، "فلا بأس بالموت إذا الموت نزل، فكلنا إلى الله راجعون."

بينما كانت تمسك يدها بيد أخيها، شعرت بدفء الحب الذي يحيط بها كعناق طيف، وأدركت أنها ليست وحدها في هذا الصراع المرير.

ـالفصل الحادي عشرـ

"تحت وطأة المرض: حلم البقاء"

الـجزء الأول

خرج خليل من غرفة نفس، محمّلًا بأحزان لا تنتهي. وجهه كان مرآة تعكس قلقًا عميقًا، كأنه يصارع أفكارًا متلاطمة في ذهنه. سأله خالد بقلق: "ماذا حدث؟"

جلس خليل على حافة الأريكة، صامتًا لحظة، وكأنما يبحث عن الكلمات التي تاهت منه، ثم بدأ يسرد الحوار الذي دار بينه وبين "نفس"، بلهجة ثقيلة كالنحس. كان يدرك أن كلماته ليست مجرد حكاية، بل شهادة على معركة ضد المرض.

خالد وغصون استمعا بقلوب مثقلة، تبادلا نظرات صامتة، يدركان أن عليهما دعم نفس في مواجهة المرض الذي ينخر في عظامها بلا هوادة.

ركض خالد كمن يسابق الزمن، وعاد محملًا بمفكرته، تلك التي كانت دائمًا ملاذًا لأفكاره وأحلامه. طلب من غصون أن تأخذها إلى نفس لتقرأها. لكن يدي نفس الهزيلتين كانتا ترتجفان، فقد فقدتا القدرة على الإمساك بأي شيء. "اقرئيها لي يا غصون،" طلبت بصوت ضعيف، كأنما كانت تتوسل إلى الكلمات أن تعيد لها بعض الأمل.

بينما كانت غصون تتلو الكلمات، بدأت بسمة باهتة تتسلل إلى وجه نفس، كانت تلك بسمتها الأولى منذ زمن بعيد. دموعها سالت بهدوء، تتناغم مع كلمات الأمل التي تتردد في الغرفة.

في تلك اللحظة، أدركت أن خالد هو من وضع الوردة الصفراء تحت المنظار، وهو من غطاها بالبطانية عندما نامت على الشرفة في تلك الليلة الباردة، تقربه من ريفاز كان محاولة لإيقاظ غيرتها فقط.

كانت كأنما تبحر في بحر من الذكريات، حيث الأمل كان يتلاشى مع كل لحظة، لكنها لم تفقد الرغبة في القتال، حتى لو كان ذلك القتال يبدو وكأنه يسير في اتجاه عكس التيار.

خالد وخليل، وهما يحاولان التشبث بأي أمل، قررا إعداد جدول غذائي غني بالفيتامينات والمعادن التي قد تساعد جسدها الضعيف.

توجها إلى السوق ليشتريا ما يحتاجونه من خضار وفواكه، وغصون تكفلت بتحضير الطعام، تطحنه وتطعمه إياها كل ساعة، كأنما يقاومون المرض بأيديهم العارية.

كانت نفس تستجمع قواها بصعوبة، تقاوم كل وجع، تأكل رغم الألم الذي يعتصر لسانها، وتحاول الإمساك بالأشياء رغم ارتعاش يديها. الإرادة الصلبة التي كانت تحيا في داخلها بدأت تعود، كأنما ينبعث من روحها بريق لم يخفت بالكامل.

استمرت في محاولاتها، وسط تشجيع العائلة، لكن المرض كان كالبحر الهائج، يضرب بقوة لا يمكن ردعه، وكل محاولاتها باءت بالفشل.

وفي لحظة وجع صادقة، قالت نشوة لنفس: "أفكر بإخبار الأهل بحالتك." لكن نفس، بصوت خافت مشحون بالخوف، ترجتها: "لا يا أمي، أرجوكِ. لا أريد نظرات الشفقة. لا أريد أن يُثقل قلبهم بمصابي. دعيني أواجه المرض بنفسي، فمشاهدة أحبتي يتألمون لأجلي هو وجعي الأكبر." وافقت والدتها بحزن عميق، واحتفظت بالسر.

في تلك الأثناء، جاءت غصون تخبرها أن صديقتها ستزورها بعد قليل. تعكرت ملامح نفس وطلبت منها أن تعتذر منها فورًا. سألت غصون: "لماذا؟" فأجابت نفس بصوت يشوبه الحزن: "قلبي لا يحتمل

آن أجرحها برؤيتي. صديقتي رقيقة، لا أريد آن أكون سببًا في وجعها." توسلت إليها أن تعتذر، وبالفعل، اعتذرت غصون في اللحظة الأخيرة من قدوم صديقتها.

قبل يومين من السفر، شهدت عائلة نفس تحسنًا واضحًا في حالة ابنتها الحبيبة. استطاعت نفس الوقوف ببطء، مدعومةً بأخاها خليل، فانفجرت فرحًا صاخبًا: "أمي، استطعت الوقوف!" لكن هذه اللحظة السعيدة لم تدم طويلًا. مع حلول الليل، عادت الحمى الشديدة لتنهش جسدها، وتسرب الألم في عظامها كالسم. اتصل والدها بالطبيب، الذي وصف لها عقارًا مهدئًا. بعد تناوله، غفت نفس أخيرًا، متأملةً في نوم عميق. في تلك الليلة الطويلة، تناوبت العائلة على رعايتها. الكمادات الباردة وقراءة القرآن، كأنهم يحاولون حماية ما تبقى من روحها.

لم تفق نفس من نومها لمدة يوم كامل، تاركةً عائلتها في حالة من القلق والخوف. استشار والدها الطبيب عن سبب نومها الطويل، وهل ينقلها إلى المستشفى، طمأنهم الطبيب قائلًا: "هذا طبيعي، إنه بفعل العقار المهدئ، لا حاجة لنقلها إلى المستشفى، الأفضل أن تبقى بينكم."

في وقت لاحق من اليوم، ونفس لا تزال نائمة بفعل العقار المهدئ، زارتهم ابنة خالها دون سابق إنذار. اصطدمت عند رؤية نفس في تلك الحالة، وأجهشت بالبكاء "لم تستطع السيطرة على دموعها". ركضت نشوة نحوها، محاولةً تهدئتها، وأخبرتها عن مرض نفس. لم تصدق ابنة الخال ما تسمعه، ولامت عمتها "نشوة" على إبقاء الأمر سرًا. أجابت نشوة بحزن: "كانت رغبة نفس، لا تريد أن يثقل الحزن على من يحبها."

غادرت ابنة الخال المنزل، لكنها لم تستطع كتمان السر، فأخبرت الجميع. تدافع الأهل لزيارتها، شعرت نفس بالارتباك الشديد. وقالت لوالدتها بتوسل: "أرجوكِ، لا أريد أن يبقى أحد عندي طويلًا... فقط بضع دقائق." امتثلت أمها لطلبها.

قبل يوم السفر، طلبت نفس من أخيها خليل أن يروي لها حكاية لتحفيز نومها. نامت لبرهة، لكن فجأة استيقظت تصرخ من ألم لا يوصف. شعرت وكأن عظام جمجمتها تتحطم، وأصواتًا في رأسها كطقطقة عظام تتكسر ببطء. الحمى كانت تحرق جسدها كاللظى. كان الألم أقوى من قدرتها على التحمل. أسرع خليل لإخبار والده، وتجمع الجميع حولها. اتصل والدها بالطبيب، الذي وصف لها أدوية لتخفيف الألم. هدأ الألم بعد تناول الأدوية، وغفت. لكنها استيقظت جسدًا بلا حياة، ولم يتبقَ إلا وعيها الحاد الذي ظل يشهد

كل تلك المآساة، مدركًا بوضوح وحشية المرض الذي يتغلغل في جسدها، مرحلة تلو الأخرى.

الجـزء الثـــاني

في صباح اليوم التالي، استيقظت نفس على وقع جوعٍ شديد يعصف بأحشائها، فبادرت غصون إلى إطعامها بحنان وعناية خاصة.

بعد أن تناولت نفس طعامها، التفتت إلى خليل، وبابتسامة واهنة طلبت منه أن يبقى بجانبها، لمساعدتها على العودة إلى النوم. استجاب خليل بكل حب ورعاية، وجعل من فخذه وسادة مريحة لها. بينما كان يمرر يده برفق على شعرها، تلا بعض آيات القرآن بصوت هادئ. سرعان ما استسلمت نفس للنوم في حضن الطمأنينة.

لكن السكون لم يدم طويلًا، إذ استيقظت نفس بعد دقائق قليلة، مذعورة من كابوس غريب. كانت عيناها الواسعتان تعكسان رعبًا عميقًا. سألها خليل بقلق بالغ: "ماذا رأيتِ؟"

أجابت بصوت مختنق يقطعه الخوف: "رأيت رجلًا يركض خلف آخر، يريد أن يقتله."

احتضنها خليل برفق، محاولًا منحها بعض الطمأنينة. "إنه مجرد حلم، لا تخافي حبيبتي." ثم استمر في تلاوة القرآن، داعيًا إياها إلى السكينة والهدوء، حتى استعادت الأجواء هدوءها.

أخبرت نفس خليل برغبتها في الجلوس فأجلسها برفق. لكنها أضافت بقلق: "أشعر بالاختناق، لا أستطيع التنفس جيدًا."

ركضت غصون مسرعة، محملةً بالقلق، وأعدت لها جهاز التنفس. بينما كانت نفس تشعر بالذعر، قالت: "أسمع ضربات قلبي، كأنها تنبض في أذنيّ."

سرعان ما قدم والدها المساعدة، فأعطاها دواءً لتنظيم ضربات القلب. وبمرور الوقت، هدأ قلب نفس، وعادت دقاته إلى إيقاعها الطبيعي.

بعد أن شعرت نفس بالتحسن، طلبت من خليل أن يعيدها إلى الفراش، فقد غزا النعاس جفنيها. بعد أن اطمأن والداها عليها، استسلم والدها للنوم بعد ليلةٍ طويلةٍ من السهر، بينما انشغلت والدتها في المطبخ لتحضير الفطور، وخلدت غصون إلى النوم مرهقةً.

وفي تلك الأثناء، كان خالد في غرفته، يناجي ربه بخشوع، متضرعًا لشفاء نفس، عازمًا على أن تكون دعواته هي السند الذي يخفف عنها.

بعد عدة دقائق، لاحظ خليل تغيرًا في ملامح نفس فركض نحو خالد طالبًا منه تجهيز السيارة للذهاب إلى المستشفى، ثم أخبر والديه أن حالة نفس قد ساءت. وفي تلك اللحظة، كانت نفس تلاحق بنظراتها الوجوه المرعوبة لعائلتها، كانت عيناها مليئتين بالكلمات، لكن لم تستطع أن تنطق بشيء. أغمضت عينيها في صمتٍ ثقيل، وكأنما كانت تنسحب إلى عالمٍ آخر.

حملها خليل وهرول باتجاه السيارة، بينما كان والده يركض خلفه، وهو يخبر زوجته بصوت مرتعد مضطرب أن تتصل بأخيه زياد ليتبعهم إلى المستشفى. شغل خالد السيارة ونقل نفس إلى المستشفى بكل عجلة. عند باب المستشفى، وضع الفريق الطبي نفس على النقالة، وهرولوا بها إلى غرفة العناية المركزة، وتبعهم الأطباء بخطى سريعة. وأغلقوا باب الغرفة خلفهم!!

جلس والدها على كرسي المستشفى البارد، منحني الظهر، يدسُ وجهه الشاحب الفاقد لعلامات الحياة بين كفيه، غارقًا في مناجاة

ربه ليحفظ ابنته ويحميها. كان خليل يذرع الممر ذهابًا وإيابًا، ولسانه لا ينفك عن الدعاء والتضرع إلى الله، والدموع تملأ عينيه.

استند خالد على الحائط، عاقدًا ساعديه بجفاف يوازي الصخور، بينما كانت مشاعره المدفونة في أعماقه تمزقه بصمت. بقيت عينيه معلقتين بباب الغرفة المغلقة، تعكس الألم والإنكسار.

في تلك اللحظة المفعمة بالتوتر، وصلت نشوة وغصون إلى المستشفى، يرافقهما والدي خالد وغصون. دموع نشوة كانت تتسارع بالانسكاب، فهي تدرك الوضع وخطورته.

ركض خليل نحوها، محتضنًا إياها بحنان، محاولًا أن يخفف من وطأة الألم الذي كان يعتصر قلبها.

خرج الطبيب من الغرفة، ووجهه يعكس نذرًا من القلق وعدم الاطمئنان، فتجمعت الأنظار حوله كأنها تبحث عن بصيص من الأمل في كلماته. لكن لا أحد تجرأ على كسر الصمت الذي خيم على المكان. نكس الطبيب رأسه في أسى، ثم نطق بكلمات تجرح القلوب: "للأسف، لم نستطع إنقاذ ابنتكم، قدر الله كان أسرع منا."

وبعد تلك الكلمات، عاد إلى الغرفة، وآغلق الباب خلفه، تاركًا مساحة للقلوب والعقول لتستوعب الصدمة.

بعد تلقي النبأ، أطبق الصمت المخيف، بفكيه على أصحاب القلوب المرتجفة والمبتهلة لا يقطعه سوى شهقات بكاء مكتوم ومكلوم من الصدور التي ذبحها الألم. انهارت نشوة ببكاء صامت، غير قادرة على التصديق، واختبأت بين ذراعي أحمد المصدوم، الذي كان متسمّرًا في مكانه.

لم يحتمل خليل البقاء، فخرج إلى حديقة المستشفى يبحث عن ذرة هواء تسعفه من اختناقه. وضعت غصون يدها على صدرها، تستجدي بعضًا من الهواء، لكن بدلًا من ذلك، صدر منها صوت حشرجة مخيفة، وانهارت بعدها، فأعصابها الواهنة لم تعد تحتمل شيئًا من الواقع، فآثرت أن تذهب إلى عالم اللاوعي، ففيه الخلاص من مرارة الوعي. ركضت والدتها تنادي الممرضات لإسعافها، كان خالد على الحائط، يصارع قدميه ليبقى واقفًا، لكن الأمر كان أكبر منه. كاد أن ينهار أرضًا، لكن كتف والده وذراعه الثابتة على ظهره ساندته بقوة تمنع انهياره. همس له والده بقوة: "تمالك نفسك يا بني." ومع كلمات والده، استجمع بقايا قوته وعاد لصموده، كاتمًا الألم في صدره ليحطم ويقطع قلبه المثقل بالجروح والندوب.

الـجزء الثالث

تدحرجت النقالة ببطء عبر باب غرفة العناية المركزة حاملةً جثمان نفس الملائكي، لتقلها إلى غرفة التابين لإصدار شهادة الوفاة، والتصريح بالدفن، ولتحضير جثمانها لنقله إلى المنزل. عندما رأت العائلة جثمان نفس، أدخلت في غمرات من الذهول، نَدت من نشوة صرخة قوية مزقت أحشاء السكون. التف خليل حول جسدها، يبكي ويقول بصوت مفعم بالحزن: "حبيبتي، لماذا ذهبتي بعد أن بددتِ عتمتي، وأظهرتِ النور في حياتي، وأحييتِ الأمل والسعادة في عروقي؟ لماذا تتركينني وحدي؟"

انهار أحمد في بكاء مرير، وكأن كل دمعة تسقط كانت تحمل معها جزءًا من روحه.

بعد أن تم نقل جثمان نفس إلى المنزل، اجتمع الأهل والأحباء حولها. بقلوب مثقلة، بدأوا في غسلها وتكفينها، دنت العائلة الثاكلة من ابنتهم النائمة في سكونها الأبدية، لتقبيلها وتوديعها.

تقدم أحمد برفق نحو زوجته، التي كانت مَنكسرة أمام مضجع ابنتها، احتضنها في محاولة يائسة لتهدئة عواصف الحزن التي تعصف بقلبها، همس في أذنها بكلمات مطمئنة، لكن الأنين في قلبها كان أقوى من أي كلمة.

ثم نُقل جثمان نفس إلى المسجد، حيث أُقيمت الصلاة عليها وسط أجواء مفعمة بالحزن والأسى. بعد ذلك، تم نقل نفس إلى مقبرة العائلة، القريبة من منزلهم، ووُرِي جثمانها الطاهر الثرى.

وقف السيد أحمد أمام قبر ابنته، قلبه مثقل بأثقال الفراق، حيث تحولت مشاعره إلى طوفان من الآلام المتدفقة. كانت يده ترتعش بشكل يكاد يُفقده السيطرة، وهو يحمل المجرفة التي ستلقي التراب على جثمانها الطاهر، الذي خبا بريقه ومصيره.

تجاعيد الألم ارتسمت على وجهه، كأنها خرائط تعكس معاناته، بينما كانت عينيه تلمعان بدموع حارقة، وكأن كل قطرة منها تحمل معها ذكريات حية لتلك اللحظات السعيدة التي عاشها معها. كانت تلك اللحظات تُغنيِ بصوت ضحكتها، التي كانت تُضيء أركان قلبه، والآن، لم يتبقَ منها سوى ظلال باهتة.

مع كل دفعة تراب يضعها فوق القبر، كان يشعر وكأنه يَخفي جزءًا من روحه تحت ذلك التراب، كأنما يحاول أن يضمن لها مكانًا آمنًا في أحضان الأرض. "يا ابنتي، كيف لمستِ القلوب بهذا النور، ثم غادرتِ؟" همس بها في لحظة من لحظات الضعف، حيث كانت كلماته تتردد كالصدى في فضاءٍ مقفر.

جسده كان يئن من ثقل الحزن، لكن عزيمته لم تخذله. استمر في إلقاء التراب، وكأن كل ملامسة للأرض كانت تحمل وعدًا بذكراها، بينما يتردد صدى أنين قلبه في أعماق روحه، كما لو كان يتوسل إلى الزمن أن يتوقف ليمنحه لحظة واحدة أخرى.

كلما سقط التراب على القبر، كانت ذكريات ضحكتها، وضوء عينيها، تتراقص أمام عينيه، تتلاشى كأطياف في فضاءٍ بعيد، كأنها تودعه للمرة الأخيرة. وفي تلك اللحظات، شعر وكأن الوقت قد توقف، وأن العالم حوله قد اختفى،

تاركًا إياه وحيدًا في مواجهة هذا الألم الذي لا يُحتملٍ، وكأن الأرض قد ابتلعته مع ذكرياته، لتصبح تلك اللحظة واقعًا مروعًا لا مفر منه.

بعد دفن نفس، عاد أحمد إلى منزله كمن عاد قتيلًا على جواده بعد حرب خسر فيها كل شيء. كان يمشي بخطوات ثقيلة، وكأن كل خطوة تأخذه إلى عالم من الحزن العميق. وجهه كان شاحبًا، وعيناه غارقتين في بحور من الدموع التي لم تُذرف بعد. حمل أطنان الحزن في قلبه، يبحث عن شيء يسند عليه تعبه، لكن كل ما وجده كان صدى الفراغ الذي تركته ابنته.

نفذت محاولاته في ادعاء القوة، فالابتسامة المزيفة التي كان يواسي بها نفس تلاشت كسراب في صحراء قاحلة. ارتسم الحزن على ملامحه، وكأن كل تجاعيد وجهه قد تجمعت لتروي قصة الفقد. أصبح يقضي أيامه منعزلًا في زوايا المنزل المظلمة، حيث كانت الأضواء خافتة، وكأنها تشارك حزنه.

كان يستمع إلى صدى ضحكاتها وكلماتها العالقة في ذاكرته، تلك الذكريات التي كانت بمثابة خنجر يغرز في قلبه. كلما حاول أن يتجاوز ألمه، كانت تلك اللحظات السعيدة تعود لتطوقه، كأشباح تلاحقه بلا رحمة. كان يتمنى لو يستطيع الهروب من هذا الواقع، لكن كل زاوية في المنزل كانت تحمل رائحة ذكرياتها، وكل شيء من حوله كان يذكره بغيابها.

كعود ثقاب مبلل بين كومة قش، كانت نشوة محاصرة بآحزانها، كان عليها أن تجد أشياء تحيا من أجلها، ولكن ليس من ضمنها أنها ستكون سعيدة بعد اليوم. كان قلبها يتأرجح بين مشاعر الفقد والألم، كغيمة ثقيلة تعكر صفو السماء. كل لحظة كانت تمر كانت كخنجر يغرز في قلبها، يُعيد إليها ذكريات ابنتها، ضحكاتها، وأحلامها التي لم تتحقق.

شعور العزلة كان يلفها كعباءة ثقيلة، حتى في وسط عائلتها، كانت تشعر وكأنها غارقة في بحر من الوحدة. كانت تتلمس الأشياء التي تذكرها بابنتها، كجهازها الحاسوب، ملابسها، وصورها المعلقة على الجدران، وكلها كانت تصرخ في وجهها، تذّكرها بالفراغ الذي تركته.

في لياليها الطويلة، كانت تتقلب في سريرها، تسترجع لحظات طفولتها، وشبابها، تلك الأوقات السعيدة التي كانت تجلب لها السعادة. لكن تلك الذكريات، التي كانت تعتبر كنوزًا، أصبحت الآن أشواكًا تؤلمها.

على صدر خليل، كانت هناك يابسة لن تبللها دُموعه التي تسقط كالمطر. في أعماق قلبه، كانت نيران الحزن تشتعل بلا حدود، تأكل كل ما تبقى من شعاع الفرح في حياته. كان يشعر بأن جزءًا منه قد

مات مع آخته، وآن الحياة لن تعود كما كانت، بل ستظل مظلمة وفارغة كأنها لوحة فقدت ألوانها. كل تنهيدة كان يخرجها كانت تحمل عبئًا لا يُحتمل. كان الألم يمزق قلبه، ويعصر روحه، لكنه رغم ذلك كان يحاول دائمًا أن يظهر بمظهر القوي، متسلحًا بعزيمة لا تنكسر من أجل والديه، اللذين كان يحمل همّهما فوق كاهله، آملًا أن يكون لهم سندًا في هذه العاصفة العاتية التي هزت كيانهم.

غصون كانت تُقلب صفحات الذكريات، وعيناها مليئتان بالدموع. كل ذكرى كانت كخنجر يجرح قلبها، وشعور الفقد كان يغمرها ككابوس بلا نهاية. ظلت تسأل أمها: "أماه، كيف أدير ظهري للحزن؟ كيف يتعلم الطفل أن يقف على قدميه؟" فمنذ يوم ماتت "نفس" وقدماي ترتجفان!

أما خالد فقد أدرك أن فرحة الأمس قد تلاشت إلى الأبد. لم يعد كما كان، ففقدان نفس كان موتًا حقيقيًا للأمل في قلبه. أصبح يختبئ خلف صمته لا يتحدث كثيرًا، لكن عينيه كانت تعبر عن كل ما يشعر به، تقولان كل شيء. كان يشعر بالضياع، كأن جزءًا من روحه قد غاب مع رحيلها، وأصبح يحاول أن يجد طريقة للتعايش مع هذا الألم الذي لا يُحتمل.

الخاتمـــة

في الأيام التي تلت تلك اللحظات القاسية، كانت عائلة نفس تسير في ظلال الذكريات، كمن يمشي على حافة جرف مائل، لا يعرفون إن كانوا سيقفون على أقدامهم أو يسقطون في هاوية الحزن. فقد كانت نفسٍ أكثر من مجرد ابنة أو أخت؛ كانت حياة، ونجمة، وعاملًا مشعًا في لياليهم. كانت حياتها تُحوّل أحلك اللحظات إلى أوقات من السعادة والأمل. فقد ترك موتها أثرًا لا يمكن محوه.

ومع كل نبضة قلب، كانوا يشعرون بأنها تناديهم من أعماق الأرض، وأنهم لا يزالون في دوامة من الحزن لا تنتهي، ليعيشوا في عالم بلا ألوان، حيث تحوّلت السعادة إلى ذكرى مؤلمة. ومع كل هذا الألم، كانوا يدركون أن الفراغ الذي تركته وراءها لا يمكنٍ لأيٍ أحد ملؤه، وأن ذكراها ستظل تضيء في قلوبهم، ولكنها أيضا ستعمّق جراحهم إلى الأبد.

انتهت الرواية هنا، ولكن حب تلك الملاك الجميل لن ينتهي آبد الدهر. ستظل روحها حية في كل لحظة، وفي كل ذكرى، وفي كل ابتسامة تُشرق على وجوههم رغم الحزن. ستبقى قصتها حكاية تُروى للأجيال، تذكيرًا بأن الحياة قصيرة، وأن الحب هو ما يبقى في النهاية، حتى لو كانت الأجساد قد غادرت.

الرحلة الأخيرة

هي رواية درامية تحكي قصة "نفس" وعائلتها في رحلتهم إلى قبائل إثيوبيا لاكتشاف ثقافة جديدة. بعد العودة، تُصاب "نفس" بمرض غامض يتفاقم تدريجيًا، مما يغير حياتها وحياة عائلتها. بينما يكافحون بين البحث عن علاج والحفاظ على الأمل، تتصاعد معاناتها الجسدية والنفسية. الرواية تركز على الصراع الداخلي لـ"نفس"، وعلى الدعم العائلي في مواجهة الألم والفقدان.

رندا فضل علي هادي

الرحلة الأخيرة
رندا فضل علي هادي

دار أحرفنا المنيرة للنشر الإلكتروني